الباب الرابع

▪ الفصل الأول

فلسطين في الماضي والحاضر

تبلغ مساحة فلسطين الكلية حوالي ١٦٠٠٠ كيلومتر مربع، وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ولها تاريخ طويل من حيث المساحة والسكان وملكية الأرض، احتلتها إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ وطردت أصحابها الأصليين العرب من أراضيهم وبيوتهم، وما لبثت أن صادرت كل ممتلكات الفلسطينيين الذين حولتهم إلى لاجئين سكان مخيمات يعيشون على صدقات هيئة الأمم المتحدة. وفي عام ١٩٦٧ أكملت احتلالها للأراضي المتبقية من فلسطين التاريخية، ولكنها لم تتمكن من تفريغها من سكانها كما حدث عام ١٩٤٨ نظرًا لتمسك السكان بأرضهم وبوجودهم، وعدم الرضوخ للتهديدات والإجراءات القمعية والمعاملة التعسفية لهم من قبل القوات المحتلة، ولا زالت إسرائيل تحتل كامل فلسطين التاريخية رغم كل القرارات الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة، التي تدعوها فيها بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧، يحد فلسطين من الشرق نهر الأردن، والمملكة الأردنية الهاشمية، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب برية سيناء المصرية، ومن الشمال لبنان وسوريا..

فلسطين واسمها التاريخي "كنعان" عامرة بأهلها المنحدرين من الأصول الكنعانية العربية على نحو غير منقطع منذ عشرات الآلاف من السنين، ولا زالت الحفريات في فلسطين والمكتشفات الأثارية فيها تدل دلالة واضحة على وجود الكنعانيين العرب فيها منذ أقدم عصور التاريخ، فمدينة أريحا مثلاً تحكي الكتابات التي تم اكتشفاها مؤخرًا بأن تلك المدينة الكنعانية يرجع تاريخها إلى ثمانية آلاف سنة قبل مولد السيد المسيح عليه السلام، وهذا يؤكد أن عمر المدينة المعروف حتى الآن يصل إلى عشرة آلاف سنة ونيف، كما تشير المكتشفات إلى أن أريحا أقدم موضع للزراعة التي مارسها الكنعانيون فجعلوا منها أغنى مدن العالم القديم.

تشير السجلات الأثارية إلى أن أصل اليهود يعود إلى القبائل الغازية لفلسطين، وهناك اعتقاد بأن قبائل تدعى القبائل العبرانية هجرت بلاد ما بين النهرين واستقرت في وقت لاحق في بلاد كنعان، ما بين ١٨٠٠ ــ ١٥٠٠ قبل الميلاد، وكانت البلاد آنذاك تضم إلى جانب أهلها الأصليين "الكنعانيين" قبائل مختلفة منها: الحثيون والفلسطينيون أو "الفلستينوس" من ذوي العروق اليونانية، إذ أنهم قدموا إليها فيما بعد، وهم من الشعوب التي هاجرت من الجزر اليونانية والشعوب اليونانية القديمة واستقرت في سيناء ثم انتقلت من هناك إلى المناطق الجنوبية من فلسطين، والتي تعرف اليوم بمنطقة غزة ومدينة "حبرون الزاهرة" أو مدينة الخليل الحالية.

الكتاب المقدس "التوراة" يشير إلى أن موسى عليه السلام قاد القبائل الإسرائيلية أو قسمًا منها من مصر، وغزا فلسطين بقيادة يشوع بن نون، واعتمادًا على رواية الكتاب المقدس فإنه يمكن التخمين بأن الملك داود أيضًا كان قد غزا القدس حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وأقام مملكة يهودية على معظم الأراضي الكنعانية وأجزاء من الضفة الشرقية لنهر الأردن.

بعد وفاة سليمان بن داود تم تقسيم مملكة يهودا إلى يهود الجنوب ويهود الشمال، وظلت القدس مركز السيادة والعبادة عند اليهود في جميع الأوقات التي كان لهم فيها سيادة على البلاد.

الآشوريون العراقيون قاموا باحتلال بلاد كنعان في عام ٧٢٠ قبل الميلاد، كما غزا البابليون البلاد الكنعانية نحو عام ٥٨٦ قبل الميلاد، وقد ترتب على الاحتلال الآشوري السيطرة على شمال بلاد كنعان حيث ساق الآشوريون بني إسرائيل سبايا إلى بلاد ما بين النهرين (العراق)، فكان السبي الأول لبني إسرائيل، أما السبي الثاني فكان على أيادي البابليين الذين احتلوا منطقة القدس وسبوا اليهود إلى بابل أيضًا، فكان السبي البابلي الثاني بعد حوالي سبعين عامًا على الغزو البابلي لفلسطين، غزا ملك بلاد فارس "قورش الاخميني" مملكة بابل وواصل احتلاله غربًا إلى البحر الأبيض المتوسط، وسمح لعدد من اليهود في بابل بالعودة إلى القدس للاستيطان فيها، وبقى عدد كبير من اليهود في بابل ليشكلوا أول تجمع يهودي وقاموا بإنشاء محمية يهودية هناك.

في المنفى البابلي الثاني حافظ اليهود على صِلاتهم مع السلطات الفارسية الحاكمة، والتي دام حكمها لبلاد ما بين النهرين وفلسطين من عام ٥٣٠ - ٣٣١ قبل الميلاد أي حوالي مائتي عام إلى أن قام الإسكندر المقدوني الإغريقي باحتلال الإمبراطورية الفارسية، وفي عام ٣٢٣ قبل الميلاد وبعد وفاة الإسكندر المقدوني اقتسم قادة جيشه الإمبراطورية الإغريقية وتمكن أحد هؤلاء القادة وهو سلوقي من تأسيس حكم لأسرته في جزء كبير من فلسطين، عام ٢٠٠ قبل الميلاد، وفي البداية سمح الحكام السلوقيون لليهود في بلاد كنعان بممارسة شعائرهم الدينية واستمروا كذلك حتى عهد الملك السلوقي "انتيوخوس الرابع" الذي منعهم من ذلك في وقت لاحق، وفي عام ١٦٧ قبل الميلاد ثار اليهود بقيادة المكاعبيين ضد السلوقيين بهدف إخراجهم من فلسطين، أو لإحراز قدر كبير من الاستقلال الذاتي، وتشكيل مملكة يهودية تكون عاصمتها القدس، وتم لهم ذلك بدعم من الإمبراطورية الرومانية، وأكد الرومان عام ١٦٤ قبل الميلاد دعمهم لليهود، وحسب المؤرخين الرومان قالوا "إن يهوذا المكاعبي صديق للشعب الروماني ومجلس الشيوخ" اليهود بطبيعتهم يستجيرون بالدول الكبيرة والقوية عسكريًا لحمايتهم، باستدرار عطفهم بعد التمسكن وإذلال أنفسهم، وقد تمسكنوا لروما في تلك العصور كما يفعلون اليوم بتمسكنهم لأمريكا ودول العالم القوية من أجل الحصول على الدعم والتأييد.

▪ الفصل الثاني

من الحكم الروماني إلى الحكم العثماني

في العام ٦١ قبل الميلاد قام الرومان بغزو منطقة الشرق الأدنى، وتغلغل الرومان في فلسطين وحاصروا القدس، فأصبحت بذلك مملكة يهودا تابعة لروما وقد حكمتها بداية أسرة "هيدوريان" اليهودية الموالية لروما، وجرى تقسيم الأرض إلى مناطق يهودا والجليل وبؤر صغيرة في شرقي الأردن، وكانت هذه المناطق اليهودية تخضع للسيطرة الرومانية المباشرة وكانت تشمل القدس باسم يهودا.

ولد السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم، أي في يهودا خلال السنوات الأولى لوجود الرومان في فلسطين، وفي عام ٧٠ ميلادي أخمد الحكام الرومان تمرد اليهود ضدهم وقاموا بطرد اليهود من القدس على أثر تمرد الزعيم اليهودي "كوشيا" ضد روما، بعدها أطلق الرومان اسم "فلسطين" على تلك المنطقة، لهذا فإن الاسم فلسطين أصبح فيما بعد "فلسطين سورية"، في إشارة إلى كامل الجزء الجنوبي من سورية الحالية، واليهود الذين يريدون مواصلة شعائرهم الدينية فروا من فلسطين، أو تم نفيهم بالقوة على أيادي الرومان، وأيامها تشكل الشتات اليهودي الثاني، غير أن بعض الجماعات

اليهودية بقيت في الجليل في شمال فلسطين بصورة أساسية، وهنا يلاحظ المرء أن هذه القبائل اليهودية تتميز بالتمرد ضد من يحسنون إليها، وأن العصيان صفة تلازمهم في كل زمان ومكان، وعلى هذا الأساس فإن احتمال تمردهم على الولايات المتحدة والدول التي تساندهم حاليًا، أمر وارد عند اليهود من واقع طبيعتهم الخبيثة، ولا نستغرب حدوث ذلك إن شعروا بالأمان والسلام في إسرائيل الحالية ولم يعودوا بحاجة لدول أجنبية في دعم مشاريعهم العدوانية..

حكمت الإمبراطورية الرومانية في فلسطين حتى القرن الرابع الميلادي، تلتها الإمبراطورية البيزنطية، وفي عهد البيزنطيين انتشرت المسيحية آنذاك في معظم المناطق الفلسطينية، وفي أوائل القرن السابع الميلادي وبعد ظهور الإسلام في جنوب الجزيرة العربية تحركت الجيوش العربية الإسلامية لفتح مناطق عديدة في الشرق الأدنى، وتمكنت من التغلب على معظم بلاد الشرق الأوسط بما فيها فلسطين، وتم فتح القدس عام ٦٣٨ ميلادية في عهد الخليفة المسلم "عمر بن الخطاب" الذي أعطى الأمن والأمان لسكانها وسمح الحكام المسلمون منذ ذلك الوقت للمسيحيين واليهود بالبقاء على دياناتهم، وقبل معظم المسيحيين الإسلام واعتنقوه كما اعتنقوا الثقافة العربية الإسلامية تدريجيًا، وأصبحت القدس موقعًا مقدسًا عند المسلمين، حيث أسرى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليها، ومنها عرج

إلى السماء وتم بناء المسجد الأقصى فيها في عهد الدولة الأموية الإسلامية وكذلك قبة الصخرة المشرفة.

السلاجقة الأتراك احتلوا القدس عام ١٠٧١ ميلادية غير أن حكمهم لم يدم طويلاً فقد انتهى بعد ٣٠ عامًا حيث حل مكانهم الفاطميون، بعد أن تحالف الفاطميون مع الصليبيين سنة ١٠٩٨ واستولوا على القدس ويافا ومناطق أخرى من فلسطين، غير أن الصليبيين نقضوا التحالف مع الفاطميين وغزوا فلسطين بعد حوالي عام واحد، فاحتلوا يافا والقدس في عام ١٠٩٩ ميلادية، وذبحوا الكثيرين من اليهود والمسلمين، وحرَّموا على اليهود العيش في القدس، وظل الصليبيون في القدس إلى سنة ١١٨٧ ميلادية، وفي تلك السنة هاجم صلاح الدين الأيوبي الفاطمي مدينة القدس وحررها من أيادي الصليبيين، ومن هناك بدأ النفوذ الصليبي يتقلص تدريجيًا على الساحل الفلسطيني بموجب معاهدة مع صلاح الدين، إلا أن الصليبيون نقضوا عهدهم كما كانوا ينقضون العهود السابقة، وسعت الحملات الصليبية المتتالية للاستيلاء على القدس، ولم تتمكن من ذلك.

شل نفوذ الصليبيين بشكل نهائي عندما احتل المسلمون مدينة عكا الساحلية المحصنة بأسوار منيعة، إلا أن الصليبيون استمروا في غارات كثيفة وكبيرة على فلسطين مما أجبر المسلمين على سحب مواطنيهم بعيدًا عن السواحل، فدمروا المدن الساحلية والمزارع

لمنع الصليبيين من الاستفادة منها بالحصول على الغذاء، وهذا ما أفقر بالتالي شواطئ فلسطين وحرمها من سكانها لعدة قرون.

في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي انشأ المماليك - وهم جنود أرقاء للعرب – في مصر إمبراطورية منطقة فلسطين وكان المسلمون الناطقون بالعربية يشكلون معظم سكان المنطقة التي حملت اسم فلسطين، وفي القرن الرابع عشر الميلادي جاء إلى القدس وأجزاء أخرى من الأرض الفلسطينية يهود من أسبانيا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

في سنة ١٥١٧ هزمت الإمبراطورية العثمانية المماليك وصارت فلسطين جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ودعا السلطان التركي اليهود الهاربين من محاكم التفتيش الكاثوليكية الأسبانية إلى الاستقرار في الإمبراطورية التركية بما في ذلك العديد من المدن الفلسطينية.

غزا نابليون بونابرت الفرنسي أرض فلسطين في العام ١٧٩٨، وأدت الحرب مع نابليون وما تلاها إلى ضعف سيطرة الحكام المصريين والعثمانيين في فلسطين، وهرب العرب واليهود إلى مناطق أكثر أمنًا وازدهارًا، ولعل ثورات العرب ضد الحكم العثماني في مصر كانت آنذاك عاملاً مساعدًا على تحفيز المشاعر الوطنية الفلسطينية، تلا ذلك إعادة تنظيم الإمبراطورية العثمانية في انفتاحها على الأجانب

من أجل الحفاظ على ما أمكن من النظام، لهذا سمح العثمانيون ببدايات الاستيطان اليهودي تحت قيادة حركات صهيونية عديدة، فازداد عدد العرب واليهود في عام ١٨٨٠ م، حيث أصبح يعيش في فلسطين زهاء ٢٤٠٠٠ يهودي من أصل مجموع السكان البالغ نحو ٤٠٠،٠٠٠ نسمة، في ذلك الوقت فرضت الحكومة العثمانية قيوداً صارمة على الهجرة اليهودية وعلى شراء الأراضي، وبدأت بدعوة نشطة للمسلمين من مناطق متعددة في الإمبراطورية العثمانية للاستقرار في فلسطين وشملت الدعوة الشركس والبوسنيين.. الخ، وتملص اليهود من القيود المفروضة عليهم عن طريق دفع الرشاوى لضعاف النفوس من الحكام المحليين.

▪ الفصل الثالث

دور الصهيونية

لم يتوقف تدفق اليهود بأعداد صغيرة من جميع أنحاء المنافي اليهودية إلى فلسطين، إذ ظلت فلسطين بالنسبة لهم مركز عبادتهم الأول، وجزءًا من الثقافة اليهودية، وبرغم هذا الارتباط الروحي بفلسطين والقدس، فقد كان في مجمله ارتباطًا نظريًا في انتظارهم الخلاص على يد "المسياخ" اليهودي المنتظر، في القرن التاسع عشر الميلادي نشط اليهود في أوروبا خصوصًا بعد الثورة الفرنسية التي أخرجت اليهود من معازلهم إلى العالم الحديث، ووضعتهم أمام أفكار جديدة، فاختلطت مفاهيمهم الليبرالية الحديثة مع أفكارهم التقليدية فيما يخص إسرائيل وصهيون، فقد ظهر الارتباط الوثيق بين (محبة صهيون) وبين المفاهيم القومية الحديثة، خصوصًا بين اليهود الشرقيين في أوروبا المعروفين بـ "السفراديم" وبعدها أصبحت فكرة العيش فيما يسمى أرض إسرائيل ثابتة في عقولهم، وجعلوا صهيون هدفًا عمليًا أكثر من انتظار المسياخ المخلص.

خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي شاعت بين عدد قليل من يهود أوروبا اللغة العبرية، واستثار تحرر اليهود حركة سياسية واجتماعية معادية لليهود في أوروبا، سيما في ألمانيا

وأوروبا الشرقية، ففي ألمانيا قام اليهود بتسميم آبار مياه الشرب في منطقة "شفارتس فالطن" مصدر مياه الشرب في ألمانيا وعاصمتها المحلية مدينة "فورتس بيرغ"، الأمر الذي أثار غضب الألمان وأثار اضطهاد اليهود وكذلك في أوروبا الشرقية، وكان ذلك حافزًا دفعهم للهجرة إلى فلسطين، أو أنه عجَّل في هجرتهم إلى بلاد كنعان.

الحركة الصهيونية نشأت كمنظمة رسمية لقيادة اليهود في العالم عام ١٨٩٢، بانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية، بزعامة الصحافي المجري تيودور هرتسل، غير أن تيودور هرتسل والأشخاص الذين دعاهم إلى الاجتماع في سويسرا ما هو إلا امتداد لحركة يهودية أقدم وأعلى مكانة من الحركة الصهيونية، وهي حركة لا زالت حتى يومنا هذا تعد من الأسرار اليهودية، وغير معلن عنها رسميًا كما هو حال الحركة الصهيونية التي كشفتها البروتوكولات التي عرفت ببروتوكولات حكماء صهيون، على أثر تسربها إلى روسيا، وقيام صحفي بريطاني في موسكو بترجمتها إلى الإنكليزية، ونشرها في روسيا عام ١٩٠٥، ولم تكن الحركة معروفة قبل ذلك التاريخ.

- آدمز فايسهاوت مؤسس حركة النوارنيين في ألمانيا عام ١٧٧٦ -

أما الحركة الأم تعرف بحركة "الليموناتي" بمعني حركة النورانيين، أسست بادئ ذي بدء في مدينة فرانكفورت الألمانية، بعد أن قامت عائلة انشولم الألمانية عام ١٧٧٦ باستدعاء الكاردينال اليهودي المتنصر (آدمز فايسهاوت) وطلبت منه ترك النصرانية والعودة إلى دينه اليهودي، وقامت العائلة المذكورة بإرساله لدراسة القانون في جامعة "إند ستوب البريطانية"، وبعد إنهائه دراسة القانون عاد إلى

ألمانيا وبدأ بتكليف من عائلة انشولم العائلة الألمانية اليهودية، بدأ بالعمل على تحديث المخططات اليهودية القديمة الرامية إلى العودة إلى ما سمي "أرض الميعاد"، في فلسطين وإلى تمكين حركة الليموناتي من حكم العالم وإقامة دولة العالم الواحدة، وقام آدمز فايسهاوت بتحديث المخططات القديمة خاصة تلك المخططات التي اتخذها مؤتمر المكعابيين اليهود في مدينة الإسكندرية المصرية عام ٩٤٠ ميلادية، والتي كان من أهم قراراته دعوة اليهود في العالم لاعتناق ديانات الشعوب التي يعيشون بينها، ونتج عن ذلك أن اعتنقت طائفتان يهوديتان "الإسلام" في مصر في ذات العام أي قبل ١١٧٠ من يومنا هذا، كما اعتنق العديد من اليهود في العالم الغربي المسيحية وكان يهدف من هذا القرار الدخول إلى الديانات الأخرى لنخرها من الداخل، خاصة الدين الإسلامي الذي استعصى عليهم كثيرًا، فجاءت الفكرة بأنه إذا أراد الإنسان أن يفسد عقيدة معينة عليه أن ينتمي إليها أو يعتنقها صوريًا ليتمكن من العمل على إفسادها من داخلها ويكون مقبولاً لعامة الناس، ولقد رأينا في عالمنا الإسلامي بكل أسف الكثير من التفسيرات الإسلامية لديننا الحنيف دُست علينا من قِبل أناس لا نعرف أصولهم ولا جذورهم، ادعوا أنهم مسلمون بعد أن تتلمذوا على أيادي أهم المراكز الدينية الإسلامية، وأصبحوا موضع ثقة الأمة، ولا يتسع المجال للدخول في تفاصيل عن هذه العمليات الصهيونية ضد الأمم، ويكفي أن نشير إلى أن الذين خططوا ونفذوا زرع الشيوعية في روسيا على سبيل المثال كانوا من اليهود

المتنصرين صوريًا بموجب قرارات مؤتمر المكاعبيين اليهود في الإسكندرية، حيث جرى تحديث تلك المقررات من قبل آدمز فايسهاوت ووضعت موضع التنفيذ مرة أخرى بعد أن تداعت سابقًا، ونذكر منهم على سبيل المثال: كارل ماركس (موردخاي)، ولينين وتروتسكي وجوزيف ستالين.. الخ، وجميعهم عملوا لخدمة حركة الليمواتي أم الحركة الصهيونية الحالية، واليوم نرى حركة الليموناتي هذه تحكم قبضتها على العالم بل وتحكمه بشكل خفي، وسوف تعلن قريبًا عن بدأ خلق دولة العالم الواحدة يحكمها ملك من نسل داود أي ملك يهودي من بني إسرائيل، حتى لو تداعى الكيان الصهيوني القائم حاليًا في فلسطين، لأن دولة إسرائيل لا تعني أكثر من إقامة تجمع يهودي مؤقت للحركة الأم "الليموناتي" فإن أهداف الليموناتي أبعد بكثير من إقامة كيان صغير في الشرق الأوسط، بل لأبعد من هذا بكثير وهو السيطرة المطلقة على شعوب الكرة الأرضية بشكل علني، وأن لا تظل سيطرتها خفية كما هو الحال في هذا الزمان، وما دولة إسرائيل إلا لذر الرماد في العيون وإبعاد أنظار العالم عن المخططات الليموناتية الخفية.

عمومًا كانت الحركة الصهيونية التي بعثها تيودور هرتسل عام ١٨٩٢ تهدف إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين في ظل سيادة تركية أو ألمانية، بداية لم يكن وجود السكان العرب في فلسطين يشغل بالهم إذ تجاهلوا ذلك الوجود واعتقدوا بأن العرب الفلسطينيين

لا يمانعون الانتقال طوعًا إلى بلدان عربية مجاورة، فأنشأ الصهاينة مزارع تعاونية في مناطق متعددة من فلسطين مثل مستوطنات: بتاح تكفا (مفتاح الأمل) إلى الشرق من تل أبيب الحالية و"زخرون ليكوف" بمعنى ذكرى ليعقوب و"ريشون لتسيون" بمعنى الأولى لصهيون. وغير هذه المستوطنات الزراعية ثم بعد ذلك أقاموا مدينة تل أبيب الساحلية قرب مدينة يافا الفلسطينية العربية، وبدأوا في بنائها عام ١٩٠٩ وكانت في بدايتها ضاحية من ضواحي مدينة يافا العربية، وبعد عام ١٩٤٨ انعكست الصورة وأصبحت يافا أو ما تبقى من يافا ضاحية من ضواحي تل أبيب.

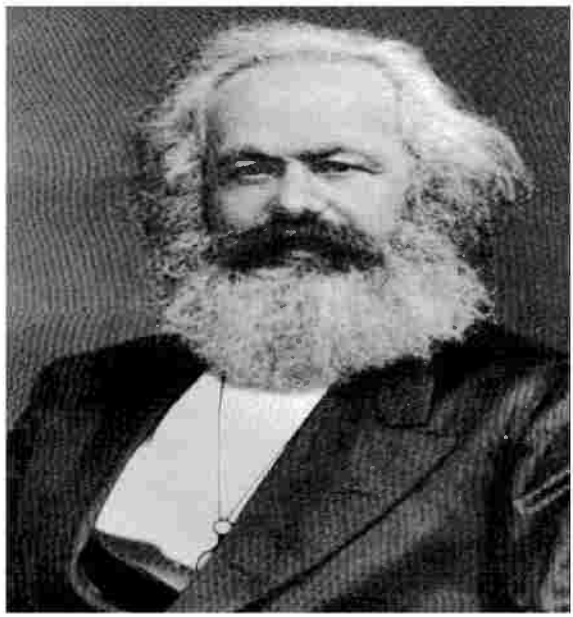

- كارل ماركس (موردخاي) اليهودي الإنكليزي المتنصر -

- ثيودور هرتسل : مؤسس الحركة الصهيونية -

▪ الفصل الرابع

الحرب العالمية الأولى

انضمت الإمبراطورية العثمانية إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى التي نشبت عام ١٩١٤ وانتهت عام ١٩١٨، وواجهت تركيا معسكر الحلفاء وكانت في فلسطين آنذاك حكومة عسكرية عثمانية، وكانت الحرب قاسية على العرب واليهود بسبب تفشي وباء الكوليرا، ولكن كان ذلك أكثر صعوبة على اليهود، وقد أمر الحاكم العسكري التركي بترحيل جميع الرعايا الأجانب عن البلاد، حيث كان في فلسطين إذ ذاك عدد كبير من اليهود الروس الذين تمكنوا من الدخول بموجب الامتيازات التي منحتها تركيا للروس، وقد استغل اليهود هذه الامتيازات للتغلب على القيود المفروضة على الهجرة واحتفظوا بالجنسية الروسية لتجنب تجنيدهم في الجيش التركي، وهكذا فإن عددًا كبيرًا من اليهود أجبروا على الفرار من فلسطين بسبب الحرب.

وخلال فترة الحرب أسست مجموعة يهودية صغيرة في فلسطين تنظيمًا باسم (نيلي) وهو اختصار للعبارة العبرية "ينتسح يسرائيل لو يشقر" (ינצח ישראל לא ישקר) وتعني هذه العبارة "لن تسقط إسرائيل حتى الأزل"، وكان هذا التنظيم يعمل سرًا بتقديم خدمات استخباراتية للبريطانيين من أجل تحرير الأرض من الحكم التركي،

وتمكن الأتراك في نهاية المطاف من القبض على أعضاء هذا التنظيم، غير أن المساعدات التي كانوا يقدمونها للبريطانيين ساعدت كثيرًا في نجاح الغزو البريطاني.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى واحتلال البريطانيين والفرنسيين لبلدان الشرق العربي تقاسموا ممتلكات الإمبراطورية العثمانية فيما بينهم، ودعا اتفاق سايكس بيكو عام ١٩١٦ إلى إخضاع جزء من فلسطين للحكم البريطاني، وإخضاع جزء آخر منها للحلفاء على أن تكون سورية ولبنان لفرنسا، غير أن بريطانيا عرضت بعد الحرب دعم المطالب العربية في الاستقلال عن العثمانيين، وذلك مقابل الدعم العربي للحلفاء، في عام ١٩١٦ ثار العرب ضد العثمانيين بقيادة البريطاني"ت.ي. لورانس" والذي عرف بلورانس العرب فيما بعد، لورانس العرب بالغ كثيرًا في الأعمال البطولية ضد تركيا كما بالغ في ذلك الخبير البريطاني "لويل توماس"، علمًا بأن لورانس كان مصابًا بالشذوذ الجنسي، وقد نال منه رجال القبائل الصحراوية العربية ما نالوا من هذه الناحية، من الطبيعي أن تأتي النتيجة بتنكر بريطانيا لوعودها مع العرب وأصرت على تنفيذ وعد بلفور لليهود الذي ينص على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

■ الفصل الخامس

الاستعدادات والمداولات السياسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى

خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت الاستعدادات والمداولات السياسية الرامية إلى رسم خارطة جديدة لبلدان الشرق الأدنى التي تنوي الدول الغربية احتلالها وإلى مساعدة الحركة الصهيونية في إقامة وطن يهودي في فلسطين، كانت المناقشات تقوم على قدم وساق، سرّية أحيانًا وعلنية أحيانًا أخرى، وكانت تدور هذه المناقشات والاتجاهات والمداولات على مستوى الدولة والوزراء مع زعماء الحركة الصهيونية العالمية التي تولى أمورها "الدكتور حاييم وايزمان" الذي أصبح أول رئيس للكياني الصهيوني في فلسطين بعد إعلان قيام دولة إسرائيل في فلسطين عام ١٩٤٨، وفيما يلي سوف أوجز تلك الاستعدادات والمناقشات التي سبقت الحرب العالمية الأولى فيما يتعلق بدور الصهيونية في تلك الحرب.

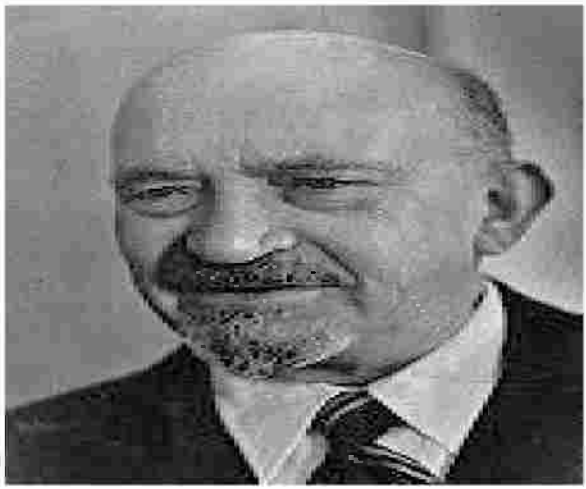

- حاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل
ورئيس الحركة الصهيونية الدولية بعد هرتسل -

في التاسع من شهر نوفمبر، تشرين الثاني لعام ١٩١٤ كان رئيس وزراء بريطانيا السير "أسكويت" ألقى خطابًا في قاعة "غيلدهول" في العاصمة البريطانية لندن، أعلن فيه صراحة بأن تركيا أقدمت على الانتحار بسبب تحالفها مع ألمانيا ودفعت قيصر ألمانيا لوقف دعمه للحركة الصهيونية، وتمكن ذلك التحالف التركي – الألماني أن ينجح في وقف ذلك الدعم.

مقابل هذا ألزم السلطان العثماني نفسه لنصرة ألمانيا فيما لو وقعت حرب ضدها وكان على وشك إعلان الجهاد الإسلامي، وفي الجانب الآخر من المشهد الدرامي للحرب فقد كان "اسكويت" يرغب في منع مائة مليون مسلم من رعايا الإمبراطورية البريطانية من

الانضمام إلى تركيا، وكان في خطاباته قد ألزم بريطانيا بتحقيق هزيمة للإمبراطورية العثمانية وتحرير شعبها من الاستعباد التركي حسب وصفه، تمامًا كما فعل الأمريكيون في احتلال العراق، حيث زعموا وأشاعوا عن طريق الإعلام المأجور أن القصد من احتلال العراق هو تخليص العراقيين من حكم حزب البعث برئاسة صدام حسين الذي أطلقوا عليه لقب "جزار بغداد" وكان ذلك للتغطية على حقيقة أطماع الأمريكيين باحتلال منابع النفط العراقية التي كان صدام حسين قد أعلن تأميمها.

رئيس وزراء بريطانيا "السير اسكويت" كان بذلك يضيف دون أن يشعر، على الأقل وضعًا صعبًا إلى بانوراما الدولة الصهيونية وكان يعتقد أنه بزوال الحكم التركي عن فلسطين فلن تكون عوائق أمام إقامة وطن قومي لليهود هناك، بمعنى أن التخطيط لإقامة دولة يهودية واغتصاب الأرض الفلسطينية كان يداعب الفكر البريطاني.

وقد عملت بريطانيا منذ بداية القرن العشرين على تنفيذ الأحلام اليهودية بوطن يهودي في فلسطين بشكل عملي وتعاوني بين الحركة الصهيونية العالمية وبين الدول الغربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وروسيا أيضًا، وكان رئيس وزراء بريطانيا يأمل من اليهود التطوع في صفوف الجيش البريطاني لقتال الألمان والأتراك أن يساندوا القوات البريطانية والفرنسية والروسية في الحرب المخطط لها.

- رسم زيتي للسير هيربرت هنري اسكويت رئيس وزراء بريطاني سابق-

إلا أن ظاهرة غامضة برزت للوجود، إذ أن اليهود لم يكونوا راغبين في التطوع لمقاتلة الألمان، حيث كان العدو المميت لهم هو قيصر روسيا، وكان الجيش الألماني ينتظر أن يهزم القوات الروسية، فقام اليهود الذين يتكلمون اللغة الألمانية والذين قادهم "ماكس كيثرمان" بالتوقيع على عريضة بدعم ألمانيا في حربها ما عدا العالم اليهودي

"اينشتاين" وكان الوحيد من طبقة المثقفين اليهود الذي رفض التوقيع على تلك العريضة، وهكذا تواصلت الاسترضاءات والتهديدات أحيانًا لليهود للانضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك، غير أن اليهود بطبيعتهم الماكرة ظلوا ينتظرون ليروا كفة الميزان إلى أين تميل ليميلوا معها.

ولما بدأت الحرب عام ١٩١٦، تمكنت القوات الألمانية من دحر الجيش الروسي في معركة "تانينبرغ" واندفع الألمان إلى قلب بولندا واستقبلهم يهود بولندا باعتبارهم منقذين ومخلصين، والذي تزعم حركة الاستقبال هذه كان "زئيف دون بيغن" والد "مناحيم بيغن" الذي كان رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلي بعد قيام دولة إسرائيل، ثم رئيسًا للوزراء في إسرائيل، وبقي كذلك إلى أن جرى اغتياله على يد يهودي سفرادي متطرف، كان زئيف يتحدث إلى جانب الألمانية والعبرية عدة لغات منها اليديش التي كان يتداولها اليهود الاشكنازيون وكان زئيف يفضل التحدث بالألمانية برغم أن اليديش هي رطانة ألمانية قديمة، وكان يسمي هذه اللغة "لغة معاداة السامية"، زئيف لعب دورًا مهمًا في توجيه ابنه "مناحيم" وقال له يومًا: "انظر يا بني الألمان سوف يجيئون، إنها ثقافة مختلفة فهي غير روسية، والجيش الروسي أثناء انسحابه ضرب نطاقا حول اليهود واقتادهم تحت السياط إلى سيبيريا، وذلك من ضمن النوايا الشريرة لسياسة "جوزيف ستالين" الخاصة بالأقليات، لقد شاهدنا الكوزاك وهم يحرقون القرى اليهودية، ولكن عندما جاء الألمان

عاملوا اليهود بشكل رائع، كانت في فلسطين في ذلك الوقت عدة مستوطنات ألمانية وأغلبها كانت مستوطنات زراعية، كما أن الكثير من المستوطنين اليهود في فلسطين كانوا يفضلون اللغة الألمانية على العبرانية، وطالبوا بأن تكون الألمانية هي لغة التدريس في المدارس اليهودية أما الحركة الصهيونية فقد قبلت بدون نقاش أن تكون لغة المؤتمر الصهيوني الألمانية وأن تكون برلين المقر الدائم للحركة الصهيونية العالمية، وكان أعضاء هذه الحركة يفضلون أن تكون ألمانيا هي الحامية لهم، أو أن يكون اليهود تحت الحماية الألمانية في فلسطين وكذلك العرب المسلمين في حالة تغلب الألمان على بريطانيا وفرنسا، الكثير يعتقدون أن الجالية اليهودية الكبيرة في "سالونيكا" هي التي ساعدت تركيا لتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

- مناحيم بيغن -

كان وايزمان المحرض الأول لبريطانيا على تقويض الإمبراطورية العثمانية، وكان وايزمان قد خلف تيودور هرتسل في زعامة الحركة الصهيونية، وأصبح أهم شخصية صهيونية مؤثرة في سياسة بريطانيا ودول العرب عمومًا، وقد كتب وايزمان بعد خطاب السير "اسكويت" (علينا أن نبلغ العالم بوضع يهود فلسطين المأساوي).

كان وايزمن الذي أصبح أول رئيس لدولة إسرائيل بعد إعلانها عام ١٩٤٨ من الشخصيات المهمة جدًا في تاريخ اليهود المعاصر، وكزعيم صهيوني كان ماهرًا ونشطًا مثل "هيرتسل" في التعامل مع الزعماء السياسيين في العالم، إضافة إلى أنه كان يجيد مخاطبة يهود الشرق.

من حيث أصوله كان والده يعمل في قطع الأشجار في الغابات وينقلها عبر النهر إلى بحر البلطيق ومن هناك يتم تصنيع الأخشاب من جذوع الأشجار، حفظ قوانين "كارو" عن ظهر قلب وكان كتابه المفضل هو "مرشد الحيارى" لمؤلفه اليهودي القديم "موسى بن ميمون" الذي عرضنا لذكره في الباب الثاني من هذا الكتاب. هناك من يؤكدون أن وايزمان كان يعاني كثيرًا من أجل اكتساب المعرفة عن طريق التعليم الحديث، ولم تكن في بيته صحف، وكان مدير مدرسته يُهرب كُتبًا عبرية تبحث في علوم الطبيعة تحت غطاء التعليم الديني ودراسة سير الأنبياء السابقين.

كانت حكومة القيصر قد وفرت ١٠ مدارس يهودية ابتدائية في المدن التي كان ٥٠% من سكانها من اليهود، وكان كل شيء قد ابتدع ليحول بين اليهود وبين الوصول إلى الجامعات، فقد كتب وايزمان في وقت لاحق: "كلما يقرأ الإنسان سنة بعد سنة الأمور المعقدة التي تدفقت من بيترزبيرغ يتكون عنده الانطباع بأن جميع الآليات المرهقة للإمبراطورية الروسية الشاسعة قد صنعت خصيصًا

لغرض وحيد، وهو اختراع تضخيم القواعد والأنظمة التي تحيط بمعيشة الرعايا اليهود"، لذلك فقد شمل التعليم مغالطات لا تنقطع من الخداع والإهانات..

- الفيلسوف اليهودي الأندلسي موسى بن ميمون -

اكتسب وايزمان صبرًا ومواظبة إلى أن وصل إلى إدارة معهد برلين للفنون المتعددة وهو واحد من أفضل المؤسسات التعليمية في أوروبا ولاحقًا انتقل إلى سويسرا، وحصل هناك على درجة الدكتوراة في الكيمياء من جامعة "وايبورغ" عام ١٨٩٩.

بعد حصوله على الدكتوراه من سويسرا غادر إلى بريطانيا وأصبح هناك مدرسًا للكيمياء في جامعة مانشستر، ووجد نفسه في مهمة استغلال وجود الإمبراطورية البريطانية المتعاطفة مع الطموحات الصهيونية، ووجد خيرة طبقاتها الحاكمة وتعرف على الكثير من الشخصيات الهامة في الدولة ليحيي من خلال هذه المعارف والنفوذ قضية الوطن اليهودي، وحصل وايزمان على الجنسية البريطانية عام ١٩١٠، وفي انجلترا أقام علاقات مع آرثر بلفور زعيم المحافظين ومع "ونستون تشرشل"، كما قدمه "اسكويت" أيضًا لأعز أصدقائه السياسيين "السير لويد جورج"، جميع هؤلاء كانوا من الداعمين للحركة الصهيونية، والتقى وايزمان عضو البرلمان البريطاني "هربرت صموئيل" الذي كان عضوًا في المؤسسة اليهودية، كان صموئيل برغم معارضته للحركة الصهيونية قد استمر في إيمانه باليهودية وارتباطه بالمعبد ودفع مستحقاته، وكان يفخر بأنه يهودي، ولما أصبح وزيرًا عام ١٩٠٩؛ كان أول يهودي يحصل على منصب وزير في بريطانيا.

كان صموئيل هادئًا، صامتًا ومحافظًا، احتفظ بآرائه لنفسه حتى أن صديقة الحميم حاييم وايزمان لم يكن يعرف أنه صهيوني، وصموئيل

برغم هذا كله ابتدع خطة ليستغل التدخل التركي مع الألمان وفي اليوم الذي ألقى فيه "اسكويت" خطابه اتصل صموئيل بالسير "ادوارد غريه" وزير الخارجية البريطاني وأجرى معه محادثة خطيرة وحساسة.

سأل غريه ما رأيك في وطن لليهود في الشرق الأدنى؟ كانت الفكرة تقابل على الدوام بعاطفة قوية، وكان غريه مستعدًا لتحقيق ذلك إن جاءت مناسبة مواتية، تناقش مع صموئيل في التفاصيل غير أن صموئيل حذر وزير الخارجية من أن منطقة الوطن اليهودي ينبغي أن لا تشمل بيروت ودمشق، على اعتبار أن في المدينتين أغلبية عربية كبيرة ويخشى على اليهود هناك من التذوب في البيئة العربية، وأضاف "إنها فكرة جيدة أن تكون سوريا من نصيب فرنسا، ومن الأفضل للسوريين أن يجاوروا قوة أوروبية من مجاورة الإمبراطورية العثمانية، وكانت هذه الفكرة أساسًا قد وردت في معاهدة سايكس بيكو السرية في "فرساي" بين بريطانيا وفرنسا حول تقاسم المنطقة بعد احتلالها من العثمانيين، فتكون سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين وشرق الأردن والعراق من نصيب بريطانيا..

عمل صموئيل على مساعدة السير "لويد جورج" الذي كان وزيرًا للمالية في بريطانيا، وأخبره بأنه مهتم جدًا برؤية دولة يهودية تقوم هناك في فلسطين، ومن هنا أطلق حاييم وايزمان وهربرت صموئيل الحملة الرامية إلى هزيمة تركيا، تمهيدًا لإقامة الوطن

القومي اليهودي على أرض فلسطين، وأخذت آمال الحركة الصهيونية بزعامة وايزمان تتطور وتتحول من المثاليات النظرية إلى سياسات الواقع العملي، وكان هناك أمام الحركة طريق طويل عليها اجتيازه حسب التخطيط الصهيوني.

- السير هربرت صموئيل الصهيوني عضو البرلمان البريطاني -

في شهر يناير عام ١٩١٥ كتب صموئيل رسالة إلى عشيقته اليهودية "فانيتا ستانلي" قال فيها: "ربما نزرع في منطقة الشرق الأدنى ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين من اليهود، وسوف يكون لهذا العمل تأثير جيد على أولئك الذين تركوا خلفًا، أنا اعترف أني لست منجذبًا إلى اقتراح إضافة المزيد إلى مسؤولياتنا لكن أصبح ذلك ضروريًا ومهمًا".

مرة ثانية بتاريخ ١٣ مارس عام ١٩١٥ أكد صموئيل عواطفه الجياشة بشأن اليهود المشتتين وقال إن بامكانهم أن يتجمعوا من كل زوايا الأرض ليحصلوا في الوقت المناسب على وطن يهودي أو على حكم ذاتي على الأقل.

على كل حال سارت الأمور بثبات لصالح الحركة الصهيونية، غير أن رئيس وزراء بريطانيا كان قد فوجئ بخلافات حادة بين الزملاء اليهود ويقول إنه ذهل من الوضع، وما أذهله أكثر هو ما أدلى به وزير الدفاع اللورد "كيتشنر" بقوله: "فلسطين لن تكون بأي شكل ذات فائدة لنا"، لكن لويد جورج وزير المالية تمكن من الجمع بين وزير الدفاع وزعيم الحركة الصهيونية حاييم وايزمان بشكل رسمي، غير أن كيتشنر كان في مهمة طويلة في روسيا تولى خلالها "لويد جورج" مهام وزير الدفاع، وكان هذا مؤشرًا حسنًا لبدء تحويل المصادر إلى شرق البحر المتوسط، مما جعل فلسطين أكثر احتمالاً، ووجد وايزمان سهولة في رؤية الأعضاء الكبار في الحكومة، وقال في مكتب وزارة الخارجية في ١٩١٦/٨/١٨: "بصدق كبير إنه حتى في هذه البلاد يترتب على اليهودي دائمًا أن يعطي تفصيلاً عن وجوده، وفيما إذا كان إنجليزيًا أو يهوديًا، وأن لذلك الشيء كانت النتيجة أكثر خطورة من بلاد أخرى، أنا لست رومانسيًا فيما عدا أن اليهود يجب أن يكونوا دائمًا رومانسيين حيث أنه بالنسبة لهم تكون الحقيقة دائمًا رهيبة جدًا".

من بعد "اسكويت" تولى رئاسة الوزراء في بريطانيا "لويد جورج" الذي كان يشغل منصب وزير المالية في حكومة اسكويت، لويد جورج عيَّن فور استلامه رئاسة الوزراء "بلفور" وزيرًا للخارجية، وكان هذا أمر قاطع وكان اسكويت مخطئًا فيما يتعلق بلويد جورج، إذ استنكر روتشيلد في الماضي ولكنه كان مأخوذًا باللورد روتشيلد الأول، الذي استدعاه مع عدد من الممولين إلى وزارة المالية مع بداية الحرب العالمية الأولى وخاطبه: "لورد روتشيلد! لقد كان لدينا بعض الأوضاع غير المريحة سياسيًا"، أجابه روتشيلد: هذا ليس وقت استعادة تلك الأشياء.. بماذا أستطيع المساعدة؟.

وايزمان وجد أن لويد جورج كان متعاطفًا مع مبدأ الوطن اليهودي، رئيس الوزراء الجديد كان عاطفيًا، فعندما دفع بخطته كأنه دائمًا يشير إلى فلسطين باعتبارها بلاد بحجم مقاطعة "ويلز"، وكان لويد جورج متدينًا وهذه نقطة أخرى جيدة لصالح الصهاينة، عندما كان وايزمان يتحدث عن فلسطين، دأب جورج على ذكر أسماء الأماكن المألوفة له توراتيًا في فلسطين.

- بلفور وزير خارجية بريطانيا وصاحب الوعد المشئوم
بإقامة وطن لليهود في فلسطين -

كان بلفور حليفًا مهمًا لأن خلف الطرق المختلفة تتأصل إرادة فولاذية لازمته للتغلب على تردد الزملاء الرسميين في وزارة الخارجية، وحال

اقتناع بلفور بقضية يكون رجلاً صعبًا في الانحراف، وكان رجل وايزمان المتحول المهم، كان الرجلان يتحدثان أولاً بشكل مطول خلال انتخابات عام ١٩٠٦، عندما وبَّخ وايزمان لرفضه أوغندا كوطن قومي لليهود بديلاً عن فلسطين، قال يومها بلفور: "كان يجب أن أقدم لك لندن أو باريس بدلاً من أوغندا.. هل ستحب ذلك؟ لكن لندن لنا وهذه حقيقة، لكن لدينا أيضًا القدس عندما تدخلها القوات البريطانية"، دار بينهما نقاش حاسم في ١٢ ديسمبر عام ١٩١٤ يستحق إعادة التذكير به لأنه يصور مهارات وايزمان كإنسان مقنع في أسلوبه، فبعد أن وضع وايزمان قضية الصهاينة في مجال العمل، أخبره بلفور بأن المسألة اليهودية سوف تظل بدون حل إلى أن تصبح طائفة في فلسطين أو يصبح اليهود متذوبين في البيئة التي يعيشون فيها، وأضاف بقصد الإغاظة أنه تناقش في هذا الأمر مع سيئة السمعة من تعادي السامية "كوسيما واجنر" عام ١٩٤٢ ووافقت، نعم أجاب وايزمان: دعني أخبرك بالضبط ماذا قالت! إن اليهود يأخذون ثقافتنا وعلومنا وصناعاتنا وهي النقطة الأساسية التي يغفلها اليهود، والتي تُشكل صلب جوهر المأساة اليهودية"، إن أولئك اليهود الذين يعطون طاقاتهم وأدمغتهم للألمان يفعلونها بوصفهم ألمان وأنهم يثرون ألمانيا وليس اليهودية التي يهجرونها، عليهم أن ينكروا يهوديتهم لكي يضعوا أدمغتهم وقدراتهم تحت تصرف الألمان، فهم إلى حد ليس قليل مسئولون عن عظمة الألمان، وهكذا نحن نقف هناك كأناس مستغلين وغير مفهومين.

قام بلفور بمصافحة وايزمان وعينه تذرف الدموع وقال: إن الأسلوب الذي يتبعه بمعاناة أمة عظيمة قد أنار طريقه، لهذا أصبح بلفور حليفًا صهيونيًا شديدًا في وزارة الخارجية البريطانية متحركًا باتجاه التزام بريطاني معين نحو اليهود، ففي يناير عام ١٩١٧ بدأت القوات البريطانية بغزو فلسطين من الجنوب عبر برية سيناء، حيث كان البريطانيون قد سيطروا على مصر، وفي نفس الشهر انهارت حكومة القيصر، مزيلة بذلك أكبر عقبة في دعم اليهود عالميًا. الوزير الانتقالي "كيرنسكي" أنهى معاداة السامية في روسيا، وفي نهاية الشهر بدأت ألمانيا معارك غير مقيدة بالزوارق جعلت التدخل الأمريكي إلى جانب الحلفاء أمر حتميًا، وأصبحت الحكومة الأمريكية أقوى الداعمين لمبدأ الوطن القومي لليهود في فلسطين.

كانت هناك بعض العقبات، فالفرنسيون يبغضون أفكار اليهود وهكذا كان البريطانيون البروتستانت بدلاً من الكاثوليك (والكفرة) الفرنسيين في القدس، وحسب مارك سايكس الذي كان يناقش سرًا معاهدة الحماية ومعارضه جورج بيكو تحدث عن مذابح باريس في ذكرى قصة الكابتن "درايفوس" التي كانت ما تزال حيّة في عقول الحركة الصهيونية، ولكي أوضح للقارئ ما هي تلك القصة في باريس، أوجزها فيما يلي..

- الكابتن درايفوس الذي سرب أسرار البحرية إلى الإنكليز
وأعدم في فرنسا بسبب خيانته -

■ الفصل السادس

ثيودور هرتسل وحاييم وايزمان
الحركة الصهيونية العالمية

"ثيودور هرتسل" الصحفي المجري الأصل انتقل مع والديه إلى النمسا وكان قد تخرج من جامعة فينا في الصحافة، كان والده يهوديًا ثريًا وكان ثيودور مدللاً غير مبالي، همه الأول كان السكر والعربدة وملاحقة النساء الجميلات وممارسة المجون بكل أشكاله، لإشباع رغباته التي ما وقفت عند حدود، بعد تخرجه من جامعة فينا بالصحافة عرضت عليه إحدى المجلات النمساوية العمل معها بوظيفة مراسل لها في باريس، فقبل العرض حيث وجد فيه فرصة للابتعاد عن عيون والديه ورقابتهم لممارساته المجون في بلد السحر والجمال باريس، أقام في باريس وأعجبته الحياة هناك كثيرًا مما زاده انغماسًا في ملذاته ومجونه، وحدث أن مرَّ يومًا أمام المحكمة فسمع أصواتًا عالية تأتي من داخل قاعة المحكمة الباريسية، وكانت الأصوات تطالب بإعدام المتهم الماثل أمام القضاء، فدخل إلى المحكمة لعله يجد خبرًا أو قصة للمجلة التي يعمل لحسابها، عندما دخل إلى القاعة في المحكمة ذهل لما رأى المتهم قائدًا يهوديًا في سلاح

البحرية الفرنسية برتبه أدميرال، وهو الكابتن درايفوس الذي اقتيد إلى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى، وذلك بإفشاء أسرار البحرية الفرنسية للبريطانيين الأمر الذي أدى إلى هزيمة الأسطول الفرنسي في معركة "ووترلوو" الشهيرة.

أخذ يتردد على المحكمة كل يوم لمتابعة قضية "درايفوس"، وكان يسمع هتافات الجمهور الفرنسي في المحكمة منددة باليهود ومطالبة بتوقيع عقوبة الإعدام بحق الخائن "درايفوس"، وظل كذلك إلى أن حكمت المحكمة على درايفوس بالإعدام، عاد إلى بيته وهو يفكر أنه لو كان لهذا الرجل دولة أو كيان يحميه لما استطاع الفرنسيون محاكمته بهذه الصورة المهينة، وفكر بأنه يجب أن يكون لليهود دولة، لئلا يستمر اضطهادهم بهذه الصورة البشعة دون أن يجدوا من يدافع عنهم وعن حقوقهم، وأخذ ورقة وقلم رصاص وكان ثملاً كتب فيها أحد عشر بندًا لنظام دولة لليهود في فلسطين باعتبارها أرض الميعاد، وبعد فراغه من كتابة الورقة وبعد أن وضع الأسس لإقامة دولة لليهود، نظر إليها وسخر من نفسه ثم قال: "إن من يقرأ هذه السطور يعتقد أن الذي كتبها رجل معتوه أو به خلل في عقله، ولكن سوف تصبح دولة لليهود حقيقية وليست على الورق فقط بعد خمسين عامًا من اليوم".

بعدها استقال من عمله وتفرغ لزيارة البلدان التي يكثر فيها اليهود لإجراء محادثات معهم ومناقشتهم في مسألة إقامة دولة لليهود في

فلسطين، وكان أسلوبه في الحديث معهم مقنعًا، الأمر الذي جعلهم يعقدون مؤتمرًا لهم كان الأول تحت اسم الحركة الصهيونية الدولية في مدينة "بال" السويسرية عام ١٨٩٢، وصدر عن المؤتمر ما صدر من بروتوكولات نسبت إلى "حكماء صهيون".

توفي هرتسل في عام ١٩٠٤ عن عمر يناهز الثانية والأربعين عامًا على أثر نوبة قلبية حادة، أصابته بسبب رفض السلطان التركي استقباله في اسطنبول، ورفضه السماح بهجرة يهودية إلى فلسطين، تولى من بعده إدارة الحركة الصهيونية الدكتور حاييم وايزمان، ويذكر أن قضية محاكمة الكابتن درايفوس كانت الدافع الأساسي والمحرك لانطلاق الحركة الصهيونية على يد مؤسسها "ثيودور هرتسل".

كان هناك أيضًا تحركات معارضة من قِبل المصالح العربية أو تلك الدوائر الحكومية التي تمثلهم، لكن العرب أنفسهم كانوا بطيئين في تحركاتهم ولم يقدموا أي شيء له قيمة إلى الجهد الحربي، باستثناء تمرد متواضع، وأكثر من ذلك الذي قاد التمرد العربي ضد الأتراك كان الكولونيل البريطاني "ن. ي. لورانس"، والذي عرف بلورانس العرب، كان يفضل فرض الحماية البريطانية على فلسطين وتنفيذ خطة الوطن القومي لليهود، أغلب المعارضة الشديدة جاءت من اليهود المعارضين للحركة الصهيونية خصوصًا "مونتاغو" الذي كان وقتها وزيرًا لشؤون الهند في الحكومة البريطانية، وكان لهذا نتائج هامة.

الالتزام البريطاني تمثل في رسالة من بلفور وزير الخارجية البريطاني آنذاك إلى اللورد "روتشيلد" كرئيس للجالية البريطانية اليهودية، وكان ذلك بالاتفاق بينه وبين بلفور على نص صيغة الرسالة، والتر روتشيلد لم يكن عظيمًا كوالده الذي توفي عام ١٩١٥، كان خياره أن يشارك في الأحداث الهامة في التاريخ اليهودي، ولكن ليس كوالده، فقد كان صهيونيًا بمعنى الكلمة، لكن كانت لديه عقبة في الخطابة وموانع أخرى، لكن حيويته لم تكن على شؤون جاليته فحسب بل على التكديس الصامت لما تمكن من جمعه من المخلوقات الأخرى، فقد جمع مليونان وربع المليون فراشة وثلاثين ألف جلد طيور وألف ومائتي صحيفة علمية وكتب، واكتشف خمسة ألاف من المخلوقات الجديدة، منها مائتين وخمسين تم تسميتها بعده، وتشمل (الفيل والنيص وطائر الجنة والسواديه وهي دبابة بعيون على سيقان ودودة أمعاء).

كان هذا غير معروف لأحد، حتى لأقرب المقربين إليه ومحبيه وأصدقائه، وكان قد جرد من ثروته من عديمي الضمير الذين استغلوه لمدة أربعين عامًا. عمومًا كان وايزمان المستشار لروتشيلد والآخرين ومسودة وعد بلفور كانت قد سلمت لبلفور باليد بتاريخ ١٨ تموز/ أيلول ١٩١٧ وكانت تحتوي على ثلاثة عناصر هامة:

١- إعادة تشكيل فلسطين ككل وكوطن لليهود.

٢- حق اليهود في الهجرة غير مقيدة إلى فلسطين.

٣- الحكم الذاتي اليهودي.

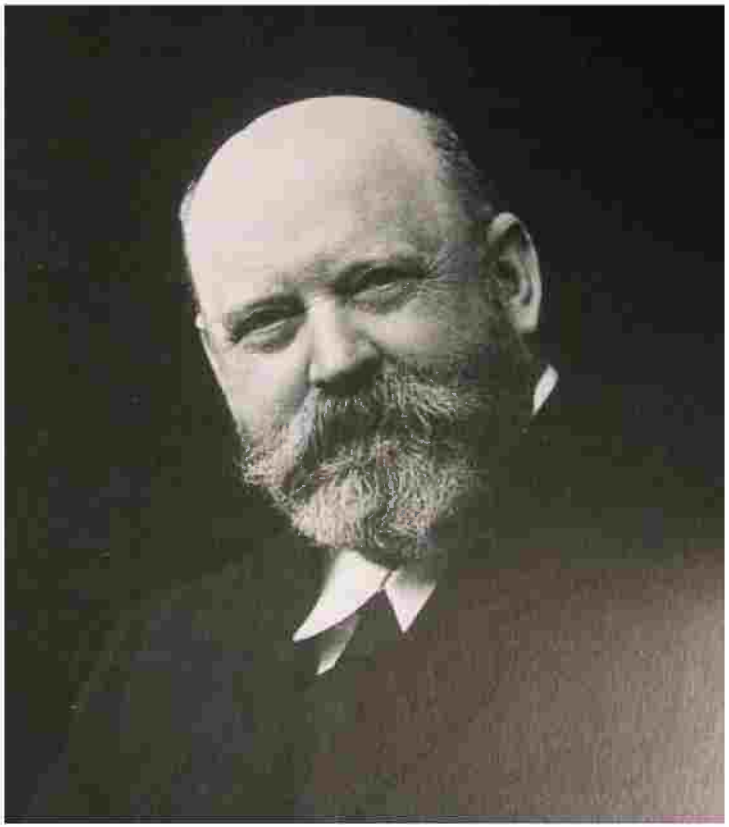

- اللورد والتر روتشيلد رئيس الجالية اليهودية في بريطانيا
والذي وجَّه بلفور وعده باسمه -

وهذه العناصر الثلاثة أعطت الحركة الصهيونية كل شيء تمنته، وايزمان اعتقد حتى إلى يوم وفاته أنه بدون معارضة "منتياغو" ما كانوا قد حصلوا على هذه العناصر الثلاثة، وكانت المسودة تمت الموافقة عليها من قبل الحكومة البريطانية في ٣١ أكتوبر وصدرت

بتاريخ ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٧، وعرفت فيما بعد بوعد بلفور، وقد جاء فيها "أن حكومة صاحب الجلالة نظرت بعطف لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وسوف تبذل ما وفي وسعها لتسهيل تحقيق هذا الوعد، ويجب أن يفهم جيدًا وبوضوح أن لا يحدث شيء يسبب تحيزًا للحقوق المدنية والدينية للجاليات غير اليهودية في فلسطين أو للحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر"، وكان إعلان بلفور المفتاح لبانوراما جديدة ما كان لدولة اليهود أن ترى النور بدونه، والفضل في ذلك يرجع إلى كل من ثيودور هرتسل وإلى حاييم وايزمان.

كانت ظاهرة القوميات والمطامع تأخذ مكانها في العالم في ذلك الوقت، وكان الحلفاء محاطون بالشعوب التي تطالب بأن يكون النصر قادمًا، وأن السلام بعد ذلك يضمن لهم حقوقا إقليمية، على أساس التعداد السكاني فيما إذا كان تعدادًا عرقيًا أو لغويًا أو عنصريًا، اليهود لديهم ادعاء تاريخي رومانسي في فلسطين، ولكنه كان ادعاءًا قديمًا، والمعايير التي طبقت في "فرساي" لم تكن أيًا من تلك المعايير القديمة، فعندما تم إعلان بلفور كان هناك ما بين خمسة وثمانون ألفًا إلى مائة ألف يهودي يعيشون في فلسطين مما جعل جميع سكان البلاد يصل إلى ستمائة ألف نسمة، وغالبًا كانت الأكثرية من العرب، لو كان عرب فلسطين منظمين جيدًا لما كان هناك أدنى شك بأن الإعلان يكون قد صدر، وحتى بعد سنة من صدوره لم يكن

تنفيذه ممكنًا، فقد دفع وايزمان الصهاينة عبر نافذة مختصرة من الحظ خبئت ثم استوثقت بغرائز رومانسية للطبقة الحاكمة في بريطانيا.

في لندن فكَّر "لويد جورج وبلفور" أنهما استغلا حربًا بغيضة في التاريخ البشري ليحققوا بعض المنافع وإعطاء اليهود وطنًا يهوديًا في فلسطين على حساب الشعب العربي الفلسطيني، فعندما التقى الاثنان على مأدبة غذاء بمناسبة يوم الهدنة رأي وايزمان أن رئيس الوزراء "لويد جورج" يقرأ المزامير في الكتاب المقدس ودموعه على وجنتيه، وقد اعتاد أن يقول بعد ذلك "إن فلسطين بالنسبة لي هي جزء من اهتمامي بالحرب ولكنها كانت الشيء الوحيد لتنوير الطغاة في لندن لإعطاء الوعود"، وأيضًا هناك نقطة أخرى وهي أن فلسطين تحميهم، الجنرال "اللنبي" احتل مدينة القدس بعد شهر واحد من إعلان بلفور، ودخل المدينة المقدسة بتواضع نبيل سيرًا على الأقدام، وعندما ذهب وايزمان ليراه عام ١٩١٨ وجد الجنرال متواضعًا سمحًا وصديقًا لكنه كان مغمورًا بمشاكل الإدارة العسكرية فقال: "لانستطيع عمل أي شيء الآن ولكن علينا أن نكون حريصين للغاية بأن لا نسبب الأذى للمنشآت الخاصة بالسكان".

معظم الضباط البريطانيين الذين كانوا في فلسطين لا يعلمون شيئًا عن وعد بلفور، بعضهم كانوا من اليهود والبعض كانوا ممن يعادون السامية والبعض الآخر كانوا يفضلون العرب وكانوا يتوقعون أن

يقوم العرب بذبح اليهود إذ اعتبروا اليهود حثالة المجتمعات الذين جاءوا إلى الأرض المقدسة من روسيا وكانوا من البلشفيك، الجنرال العسكري "وندهام" أعطى وايزمان باليد صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة وقال له: "ينبغي أن تقرأ هذه الصفحات بعناية ومن الأفضل أن تقرأها جيدًا.. إنها سوف تسبب لك إزعاجًا كبيرًا في المستقبل" وكانت تلك الصفحات هي نسخة من "بروتوكولات حكماء صهيون" الوثيقة التي كانت استرجعت من قبل البعثة العسكرية البريطانية التي كانت تخدم القيصر "نيقولا" الكبير في القوقاز، يبدو أنها كانت لدى جميع الضباط البريطانيين في فلسطين. أما بريطانيا فقد ذهبت بعيدًا لتضمن الانتداب على فلسطين عبر مفاوضات سلمية، وتقدم مشروع إقامة وطن قومي لليهود وكان الوضع عندما تسلمت بريطانيا فلسطين كالتالي:

كان اليهود في فلسطين يتكونون من نوعين رئيسيين: فكانت هناك الجاليات المتدينة من المثقفين والحكماء والذين كانوا يتكاثرون في فلسطين خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وفي القدس أقاموا في الحي اليهودي وكانوا يعيشون على أموال الصناديق الخيرية التي تجبي أموالها من اليهود في كل أنحاء العالم، وعالمهم لم يكن له علم بوعد بلفور وكانوا دائمًا يشكون من أحولهم ولهم مطالب كثيرة، وعندما ذهب وايزمان لرؤيتهم طلبوا منه أن يقنع الجنرال "اللنبي" كي يرسل سفينة إلى "تريستا"، حيث يوجد هناك أفضل أنواع من

الخيش لإقامة عُرُشهم في عيد المظلات، كي يتمكنوا من إقامة ذلك العيد بشكل صحيح، وكان وايزمان قد غضب من هذا المطلب حيث شعر أن الوطن القومي لا يهمهم بقدر ما يهمهم الاحتفال بأعياد التوراة الدينية القديمة، ثم كان هناك مستوطنون زراعيون أسسوا بمساعدة الصدقات خصوصًا بتمويل روتشيلد.

كان أسباب ما يسمى مذابح اليهود في روسيا عام ١٨٨١ دفعت إلى هجرة يهودية من روسيا إلى فلسطين، وحينها أخذ روتشيلد المهاجرين اليهود تحت جناحيه، فزودهم بالمدارس والأطباء ومستوطنات جديدة، وقرى عرفت بالموشافوت، وشملت اليركون والخضيرة وريشون لتسيون وزخرون ليكوف وبيتح تكفا وزيخرون لتسيون ويسود هماعلاه، وفي عام ١٨٩٦ أضاف روتشيلد المطلة وبيرتوفيا الروسية، ورصد مليون وسبعمائة ألف جنيه إسترليني لتمويل المستوطنات اليهودية، وكان مائة ألف إسترليني من جيب روتشيلد الخاص. لم يكن لدى روتشيلد وقت لهرتسل الذي كان يعتبره محرضًا سياسيًا أو للروس مثل وايزمان الذي كان بالنسبة له من البسطاء وقد أخبر وفدًا من الصهاينة ومنهم "تورداو": "هذه مستعمراتي وسوف افعل بها ما أشاء"، غير أنه أعطى مجموعة من تلك المستوطنات للاتحاد اليهودي الاستعماري عام ١٩٠٠ واستمر في التمويل، من عام ١٨٩٠ سنة تأسيس رخبوت والخضيرة وحتى بعد دخول القرن الجديد لم تكن تلك مجمعات زراعين فقط بل كانت

هناك مصانع أقيمت، أحياء يهودية جديدة أضيفت إلى يافا وحيفا والقدس.

عام ١٩٠٤ في أعقاب ادعاء اليهود بمذبحة جديدة في روسيا بدأت هجرة يهودية جديدة من روسيا إلى فلسطين وكانت أكبر من سابقتها، فقد كان عدد المهاجرين الجدد قد جاوز الأربعين ألفًا، بعضهم أقام في ضاحية قرب يافا العربية عام ١٩٠٩، والتي أصبحت فيما بعد تعرف بمدينة "تل أبيب"، وفي نفس السنة أسست مجموعة من الشباب اليهود مجمعًا زراعيًا في دجانيا.

▪ الفصل السابع

الانتداب البريطاني على فلسطين ووعد بلفور

في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٧ قدَّمت بريطانيا وعد بلفور لليهود، قبل أن تُحتل القدس والمنطقة المعروفة باسم فلسطين، وتمثل هذا الوعد برسالة وجهت إلى اللورد روتشيلد بناء على طلب من المنظمة الصهيونية في بريطانيا العظمى، (وهنا أود أن أذكر بأن عائلة انشولم الألمانية التي تزعمت حركة الليموناتي أم الحركات الصهيونية الأخرى، والحركات التي استقطبتها، مثل الماسونية والبهائية والقضيانية وغيرها من الحركات وصهرتها في بوثقتها، هي نفس عائلة روتشيلد التي تعيش في بريطانيا وأمريكا الآن بعد انتقالها من ألمانيا إلى بريطانيا وإلى العالم الجديد واستعملت اسم روتشيلد بدلاً من انشولم، أكد ذلك الوعد البريطاني على إنشاء وطن لليهود في فلسطين دون انتهاك الحقوق المدنية والدينية القائمة لغير اليهود الموجودين فيها، وقد جاء هذا الوعد نتيجة ضغط من جانب حركة صهيونية بريطانية وخاصة من جانب الدكتور وايزمان الذي هاجر إلى بريطانيا من روسيا، والدافع الرئيسي لهذا الوعد كان الاعتبارات الاستراتيجية البريطانية، وتحت وعود كاذبة من الصهيونية، بأن يهود العالم من شأنهم أن يهبوا لمساعدة

البريطانيين في حالة دخول بريطانيا مع دول أخرى بالحروب، فأسرع البريطانيون لإعطاء هذا الوعد خوفًا أن يسبقهم الألمان إلى إصداره.

وفي مؤتمر عقد في باريس عام ١٩١٩ دافع ممثلوا العرب والصهاينة كل عن قضيته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن د. وايزمان والأمير فيصل بن الحسين توصَّلا إلى اتفاق بشأن دعم العرب لإقامة وطن قومي يهودي على أرض فلسطين، ووقَّعا على هذا الاتفاق، كما أكد فيصل لممثل الصهاينة الأمريكيين القاضي فرانكفورتر تأييده للقضية الصهيونية لكن فيصل اشترط لهذا التأييد تلبية التطلعات العربية في سورية.

جرى توزيع الشطر الأكبر من الدولة العثمانية في مؤتمر باريس من خلال عصبة الأمم، وذلك إلى مناطق انتداب وزِّعت على المنتصرين في الحرب، رأى البريطانيون والفرنسيون في الانتداب وسيلة لتحقيق طموحات استعمارية، أبدى البريطانيون حرصهم على إبقاء فلسطين بعيدة عن الفرنسيين وأصروا على المطالبة بإقامة انتدابهم على الزاوية التي من شأنها أن تقيم الوطن القومي لليهود عليها، كما نص عليه وعد بلفور، عارض العرب فكرة إنشاء وطن لليهود بالنظر إلى المناطق التي تُسمى الآن فلسطين، إذ شعر العرب بأنهم مهددون بخطر الطرد من قِبل الصهاينة وبأنهم لا يرغبون في العيش تحت حكم اليهود.

شكّل العرب في فلسطين حركة وطنية لمقاومة شرور الانتداب البريطاني وتحيزه إلى جانب اليهود، وطالبوا تدخلاً أمريكيًا لحل المشكلة، وعلى الأثر بادر الرئيس الأمريكي ويلسون بإرسال لجنة عرفت بـ (لجنة كنغ كرين) للاستماع إلى آراء الفلسطينيين، وأعرب عارف الدجاني أمام لجنة الاستماع عن أفكاره بشأن اليهود فقال: "يثبت ماضيهم وتاريخهم أن التعايش معهم مستحيل، فهم غير مرغوب فيهم في جميع البلدان التي يتواجدون فيها في الوقت الحاضر، لأنهم دائمًا يأتون لامتصاص دماء الجميع".

في ذلك الحين أدرك الصهاينة حتمية الصراع مع الفلسطينيين والعرب الآخرين، وكان ديفيد بن غوريون زعيم "اليشوف" وتعني المستوطنة وهي كلمة عبرية تستعمل للإشارة إلى السكان اليهود في فلسطين في دولة إسرائيل الحالية، استخدمت الكلمة في ثمانينات القرن التاسع عشر عندما كان اليهود في فلسطين خمسة وعشرين ألفًا تقريبًا، واستمر استخدامها حتى عام ١٩٤٨، حيث بلغ عددهم سبعمائة ألف وتستعمل اليوم للإشارة إلي اليهود الذين سكنوا في دولة إسرائيل بعد تأسيسها في عام ١٩٤٨، واستمر ذلك حتى أصبح دافيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل، والذي ذكر أمام اجتماع في عام ١٩١٩ ميلادية: "لا يرى الجميع أنه لا يوجد حل لهذه المسألة، فنحن كأمة نريد لهذا البلد أن يكون لنا، والعرب كأمه يريدون لهذا البلد أن يكون لهم"، وعرض الصهاينة قضيتهم على مؤتمر باريس للسلام، وتم في المؤتمر اعتماد الخطة البريطانية

وكانت القضية الرئيسية التي تم أخذها بالاعتبار هي تقسيم الحقوق بين بريطانيا وفرنسا لا الاهتمام بوجهات نظر السكان.

في عام ١٩٢٠ كان لبريطانيا انتداب مؤقت على فلسطين، شمل غرب وشرق نهر الأردن، وقد ساعد الانتداب على إنشاء وكالة عرفت فيما بعد باسم الوكالة اليهودية لفلسطين، كممثل للمصالح اليهودية أمام بريطانيا، وتعمل أيضًا على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد تأخر إنشاء الوكالة اليهودية حتى عام ١٩٢٩، غير أنها أصبحت فيما بعد الحكومة الفعلية لمجتمع يهودي في العديد من الجوانب.

كانت المنطقة الممنوحة للانتداب أكبر بكثير من المنطقة التي طلبها الصهاينة، ومن الممكن كما افترض ونستون تشرشل عام ١٩٢٢ بأن البريطانيين لم تكن لديهم النية مطلقًا في أن تصبح كل هذه المساحة وطنًا لليهود، وفي المقابل ثمة من يرى أنه لم يكن لبريطانيا خطط خاصة تتعلق بشرقي الأردن في البداية، كتب ممثل بريطانيا في عمان السير "أليك كيركرايد" في مذكراته ما من رغبة في هذه المرحلة (١٩٢٠) في تشكيل إقليم إلى الشرق من نهر الأردن وتحويله إلى دولة عربية مستقلة.

في عام ١٩٢٢ أعلنت بريطانيا أن حدود فلسطين ستقتصر على المنطقة الواقعة إلى الغرب من النهر، وسميت المنطقة الشرقية من النهر "عبر الأردن" وكانت منطقة مستقلة ما لبث أن منحت الاستقلال

مما جعل جزء من الحركة الصهيونية تشعر بالخيانة لفقدان مساحة واسعة مما أسموه فلسطين التاريخية، وهي الضفة الشرقية لنهر الأردن، وانشقت مجموعة لتشكيل حركة "المراجعة" برئاسة بنيامين فلادمير جابوتسكي.

- السير ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق -

في ربيع عام ١٩٢١ وصيف ١٩٢٩ واجه القوميون العرب وعد بلفور والانتداب والوطن القومي اليهودي، وحرضوا على أعمال العنف ضد اليهود في القدس والخليل ويافا وحيفا، مما أدى في المقابل اليهودي تكوين منظمة الهاغانا اليهودية للدفاع عن يهود فلسطين،

في عام ١٩٣٦ اندلعت أعمال عنف في فلسطين واسعة النطاق ضد اليهود وضد البريطانيين، وفي تلك الأعمال قتلت القوات البريطانية عز الدين القسام في اشتباك مسلح، وكان القسام داعية من سوريا هاجر إلى فلسطين وعمل على استثارة المشاعر العامة ضد البريطانيين واليهود، ودعمت أسرة الحسيني أعمال العنف تلك كما دعمها أيضًا فوزي القاوقجي الضابط السابق في الجيش التركي، ولعل ذلك حظي بتمويل جزئي من ألمانيا وإيطاليا كما يعتقد اليهود والبريطانيون، وقد قتل في الاشتباكات التي جرت آلاف العرب ومئات من اليهود وقد توسع نطاق العنف بسبب الاستعداد الأولي للسلطات البريطانية، واضطر نصف القاطنين اليهود في الحي اليهودي بالقدس القديمة البالغ تعدادهم حوالي خمسة آلاف يهودي؛ إلى الفرار من منازلهم، وتم نقل من تبقى منهم في الخليل أيضًا. رد اليهود بإرهاب عشوائي وتفجيرات استهدفت المدنيين من العرب، وقد قامت بتنفيذ هذه الأعمال الإرهابية منظمات ارغون وتسفاي ليئومي وايتسل، وكانت ايتسل منظمة عسكرية سرية للجناح اليميني المنشق عن مجموعة "المراجعين"، أول من قادها "فلادمير زئيف جابوتسكي" الذي انفصل عن الحركة الصهيونية ثم تزعمها مناحيم بيغن في وقت لاحق، لجنة بيل عام ١٩٣٧ أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية صغيرة وأخرى عربية كبيرة، وشملت توصيات اللجنة إجراء نقل ملكية طوعي يقوم به اليهود والعرب للفصل بين السكان، وافقت القيادة اليهودية على الخطة ولكن القيادة الفلسطينية

والعربية، بمن فيهم الملك عبد العزيز آل سعود في المملكة العربية السعودية، رفضت التقسيم وطالبت بريطانيا بتقليص الهجرة اليهودية، وقال الملك عبد العزيز: "إذا اخفق البريطانيون في تحقيق مطالب العرب في فلسطين فإن العرب سوف ينقلبون عليهم ويسطفون إلى جانب أعدائهم، وأضاف بأن العرب لا يفهمون الموقف الغريب لحكومتكم البريطانية والظاهر أنهم – أي اليهود – يتحكمون بكم وبالشعب الإنجليزي عامة".

أوهمت بريطانيا العرب بأنها استجابت للمطالب العربية بالحد من الهجرة اليهودية، وقضى الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ بالسماح لـ ١٥٠٠٠ من اليهود بدخول فلسطين كل سنة، وذلك لمدة خمس سنوات، بعد ذلك ستكون الهجرة خاضعة لموافقة العرب، وفي ذات الوقت اتخذ البريطانيون خطوات قاسية ضد العرب الفلسطينيين في كثير من الأحيان تحت ذريعة الحد من أعمال العنف.

▪ الفصل الثامن

الهجرة غير المشروعة

ردًّا على كتاب بريطانيا الأبيض أو اتخاذه ذريعة بتنظيم هجرة غير مشروعة من أوروبا إلى فلسطين، من خلال مؤسسة الهجرة غير المشروعة التي نظمتها الوكالة اليهودية بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢، وتغاضت بريطانيا عن تلك الهجرة غير المشروعة، بل ساعدتها بشكل خفي، ومهدت الطريق أمام المهاجرين اليهود إلى فلسطين..

١- اغتيال اللورد موين:

قام عضوان في منظمة "ليهي" اليهودية السرية بتاريخ ٦ تشرين الثاني باغتيال اللورد موين في القاهرة، وقد كان موين البريطاني معروفًا بمناهضة الصهيونية، وكان وقتها وزير الدولة لشؤون الشرق الأوسط، والمسؤول عن تنفيذ الأحكام الواردة في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٦، أي منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين باستخدام القوة، كما كان أيضًا صديقًا شخصيًا لونستون تشرشل، إلا أن هذا الاغتيال لم يغير كثيرًا في السياسة البريطانية لكنه حوَّل ونستون تشرشل إلى باغض للصهاينة، وتمكنت بريطانيا من إلقاء القبض على القاتلين إلياهو حكيم وإلياهو بتزوري، وجرى إعدامهما شنقًا عام ١٩٤٥.

- اللورد موين اغتاله الصهاينة في ٦ تشرين الثاني عام ١٩٤٤ -

وهنا لا بد لنا من استعراض الحادثة كما رواها الكاتب المصري الأستاذ يوسف حجازي عام ٢٠٠١ وهي كالتالي:

"كان اللورد والتر موين وزيرًا مقيمًا في الشرق الأوسط بالقاهرة في منطقة من أخطر المناطق في العالم وفي فترة من أخطر فترات الحرب العالمية الثانية، وقد أوكلت إليه الحكومة البريطانية التصرف المطلق دون الرجوع إليها في مجموعة من أصعب وأعقد المشكلات، وعندما وجدت المنظمات الصهيونية أن اللورد موين شخص يتصف بالصدق والميل إلى الحق، ولما لم تستطع أن تتخذه مطية لأهوائها وخاصة فيما يتعلق بموضوع فلسطين الذي كان يرى إنها لا يمكن أن تمثل الحل لمشكلة اليهود المشردين، وأن عليهم أن يبحثوا لهم عن أرض جديدة، أو القبول بتوطينهم في بروسيا الشرقية، بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، لأن ألمانيا هي المسؤولة عن تشردهم، ولذلك هي التي يجب أن تدفع ثمن تشردهم، قرروا

إعدامه واستغلال هذه الجريمة لإثارة عطف بريطانيا والرأي العام العالمي ضد مصر من جهة، خاصة وأن مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر وزعيم حزب الوفد في ذلك الوقت؛ كان قد رفض الاعتراف "باتحاد المنظمات الصهيونية" كممثل للشعب اليهودي في مصر، وقرر وقف نشاط هذا الاتحاد خاصة وأن طلب اتحاد المنظمات الصهيونية للاعتراف به كممثل للشعب اليهودي في مصر جاء في فترة كان فيها النحاس مشغولاً في عملية إنشاء جامعة الدول العربية، والدعوة إلى عقد اجتماع لرؤساء الحكومات العربية في قصر "انطونيادس" في الإسكندرية لوضع نصوص ميثاق الجامعة، وكسب عطف بريطانيا، والرأي العام العالمي إلى جانب القضية اليهودية من جهة أخرى، والانتقام من بريطانيا التي قتلت الإرهابي "أبراهام شتيرن" في شباط ١٩٤٢، وكان أبراهام شتيرن أحد قادة منظمة الأرغون الإرهابية، الذين درسوا في إيطاليا، وكان معجبًا بالدوتشي موسوليني، ولذلك رفض دعم بريطانيا ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وقال إن البريطانيين هم العدو الأساسي لليهود وأنه لا فرق بين الدول النازية الفاشية والديمقراطيات الغربية، أو بين الشيوعيين والديمقراطيين الاجتماعيين، أو بين أدولف هتلر وجوزيف تشمبرلين، وعندما فشل في إقناع قيادة منظمة الأرغون في مساعدته في خطته هذه انفصل عن "منظمة الأرغون"، وشكَّل مجموعة شتيرن وحاول تجنيد ٤٠٠٠٠ شاب يهودي ليحاربوا مع ألمانيا والمحور ضد بريطانيا والحلفاء ولذلك كلَّفوا عصابة "شتيرن

الإرهابية" المتخصصة في مثل الجرائم الإرهابية بتنفيذ قرار إعدام اللورد والتر موين، ونسف قصر انطونيالس في الإسكندرية على رؤوس رؤساء الحكومات العربية، في يوم الاحتفال على التوقيع على ميثاق الجامعة، لأن فلسفة الصهيونية في الإرهاب تقوم على أن العالم لن يحترم اليهود إلا إذا اثبتوا أنهم بالإرهاب وسفك الدماء يدافعون عن أنفسهم وكيانهم، وأن الإنسان الذي يذهب إلى قتل إنسان آخر لا يعرفه عليه أن يؤمن فقط بشيء واحد، وهو أنه بهذا القتل سوف يغير التاريخ، وقد كلفت "منظمة شتيرن" في تنفيذ هذه المهمة، المستشرق كراوس، وهو تشيكي صهيوني وأستاذ اللغات السامية في جامعة القاهرة في الفترة من ١٩٣٦ ــ ١٩٤٤، وكان عضوًا في منظمة شتيرن الإرهابية، ولكنه انتحر في شقته بالزمالك بالقاهرة بعد تكليفه في تنفيذ مهمة قتل اللورد والتر موين وقد أكد ذلك صديقه ومساعده في بعض أبحاثه الدكتور عبد الرحمن بدوي، الذي قال إن السبب في انتحار "كراوس" هو أن القرعة قد وقعت عليه لتكليفه بقتل اللورد موين، كما كلفت "منظمة شتيرن" لتنفيذ هذه المهمة أيضًا الإرهابيان "إلياهو حكيم وإلياهو بيت تسوري" اللذان كانا يعملان في الجيش البريطاني، وفتاة كانت تعمل سكرتيرة في أحد المكاتب البريطانية، ونفذ الإرهابيان الجريمة بقتل "اللورد والتر موين"، وسائقه البريطاني "آرثر فوللر" أمام منزل اللورد في شارع حسن صبري في الزمالك، في الساعة الواحدة والربع من ظهر يوم ١٩٤٤/١١/٦، وألقت أجهزة الأمن المصرية القبض على

الإرهابيين وقدمتهما إلى المحكمة العسكرية في دار القضاء العالي وحكم عليهما بالإعدام شنقًا في ١٩٤٥/١/٢٢.

ولكن ومن سخرية القدر أو من سخرية إسرائيل أو من سخرية القدر وإسرائيل أن يرسل رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين إلى رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي برقية يستنكر فيها عملية الاغتيال ويعتبر القاتلين خائنين لقضية شعبهما، ويطلب نشر البرقية في الصحف المصرية وللأسف تنشر فعلاً في ١٩٤٤/١١/١٣، وهنا لا بد من الإشارة إلى الهدف من هذه الرسالة، وهل كان النقراشي باشا يدرك الهدف أم لا يدرك، فإذا كان يدرك فهذه مصيبة وإذا كان لا يدرك فالمصيبة أعظم، لأن مجرد إرسال رسالة من رئيس ما يسمى "الوكالة اليهودية في فلسطين"، واستقبال هذه الرسالة من رئيس وزراء أكبر دولة عربية جريمة لا تغتفر، خاصة وأن هذه الرسالة تُعطي مشروعية عربية رسمية لوكالة غير شرعية، كما أنها تُعطي صفة شعب لمهاجرين غير شرعيين وهم في الحقيقة خليط من أجناس وثقافات وحضارات وأعراق مختلفة، وتصورهم بأنهم وادعون مسالمون يستنكرون الأعمال الإرهابية، كما تصورهم أصحاب قضية وهم في الأصل والنهاية غزاة أجانب، ومصيبة المصائب أن يوافق رئيس الحكومة المصرية على نشر هذه الرسالة في الصحافة الوطنية المصرية، وذلك في محاولة صهيونية في أن تظهر الوكالة اليهودية والمهاجرون اليهود كجزء من المنظر العام في المنطقة، وهذه كانت خطوة أخرى في اتجاه

التطبيع بعد الخطوة الذي قام بها أستاذ الجيل ورئيس جامعة فؤاد الأول سابقًا "القاهرة حاليًا" أحمد لطفي السيد، في حضور افتتاح الجامعة العبرية في جبل الزيتون في القدس إلى جانب جيمس آرثر بلفور صاحب التصريح المشئوم، الذي تمر هذه الأيام الذكرى التسعون على صدوره، وحاييم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية، ورئيس أول دولة للكيان الصهيوني بعد تأسيسه في عام ١٩٤٨، والخطوة الذي قام بها الشاعر العراقي معروف الرصافي في زيارته إلى مدينة القدس وإلقاء قصيدة يمدح فيها المندوب السامي اليهودي الصهيوني البريطاني هربرت صموئيل، الذي يستعمر أرضًا عربية، ويمجد خطيبًا يهوديًا غازيًا لأرض عربية اسمه يهوذا، ومن سخرية القدر أنه توجد في مدينة غزة مدرسة ثانوية تحمل اسم "معروف الرصافي".

اعتقدت الوكالة اليهودية والإدارة الصهيونية أن رد فعل بريطانيا والعالم على اغتيال اللورد موين يمكن أن يعرِّض التعاون بينهم للخطر بعد الحرب - وكان البريطانيون قد ألمحوا إلى ذلك – كما أن هذا الاغتيال ربما ينعكس سلبًا على الجالية اليهودية في فلسطين وقد يعتبرها البريطانيون أعداء لبريطانيا، لذلك قامت المنظمتان في حملة استهدفت منظمتي ليهي وإرغون، وأطلق على الحملة اسم "موسم" إذ كان لا مفر من التخلص من الأعضاء المصريين، فألقت منظمة الهاجناة القبض على القادة واستجوبتهم، كما تم تسليم حوالي ألف منهم إلى البريطانيين.

وهذا لا بد أنه يذكرنا بقضية الرئيس رفيق الحريري في لبنان مؤخرًا، حيث قامت إسرائيل بكل تأكيد باغتياله لتتهم سوريا من أجل إخراجها من لبنان، وبعد أن خرجت سوريا بقى أمام إسرائيل اتهام حزب الله لتبعد الشبهات عن نفسها، لكن يبدو أن السحر بدأ يرتد على الساحر، نفس الأساليب لم تتبدل عند بني إسرائيل منذ الأزل، القتل وسفك الدماء واتهام الغير وهم المجرمون.

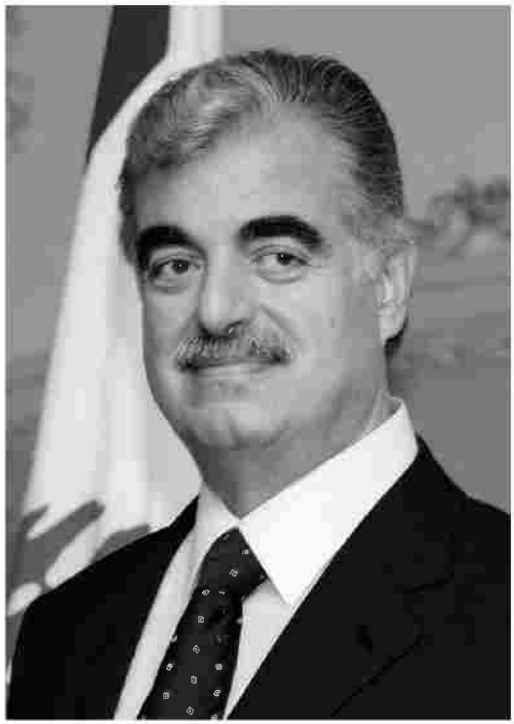

- الرئيس رفيق الحريري -

٢- المقاومة اليهودية:

عام ١٩٤٥ تولى حزب العمال السلطة في بريطانيا، وكان قد وعد بإلغاء الكتاب الأبيض وبدعم وجود دول يهودية في فلسطين، إلا أنه كما يقول اليهود نكث بوعده هذا، وواصل الجهود الرامية إلى وقف الهجرة..

وأثناء ذلك حاولت عصابة الهاجناه جلب المهاجرين إلى فلسطين بصورة غير قانونية، وتوحدت الجماعات الصهيونية المتنافسة خصوصًا الجماعات الإرهابية المنشقة عن ارغون وليهي "عصابة شتيرن" واستخدمت القوة في محاولة طرد البريطانيين من فلسطين وشمل ذلك تفجير القطارات ومحطاتها ومقر نادي الضباط البريطانيين ومقر القيادة البريطانية في فندق الملك داود في القدس، وكذلك خطف الموظفين البريطانيين وقتلهم وتعليقهم على الأشجار، وبهذا بدأ السياسيون والصحف في بريطانيا يطالبون الحكومة بتسوية النزاع ووقف تعريض حياة الجنود للخطر.

▪ الفصل التاسع

الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

منذ ساعات الفجر يتدفق اليهود المتدينون إلى أقدس حائط حسب العقيدة الدينية اليهودية، وهو ما تبقى من أثر المعبد الكبير الثاني في القدس، حائط المبكى، الصغير والكبير، الملتحي والحليق، جميعهم يشقوا طريقهم إلى الشوارع الضيقة، أو من خارج أسوار مدينة القدس، المثقفون منهم وغير المثقفين يسيرون على طول مع الرعاة من التلال خلف القدس، الشباب البالغون سن الرشد يسيرون جنبًا إلى جنب مع الرجال الذين هم في خريف أعمارهم، المدرسون من المرافق الدينية في المدينة كتفًا لكتف مع أصحاب الحوانيت الذين يأمون القدس من مسافات بعيدة، من حيفا، وتل أبيب ومن قرى بحر الجليل، يرتدون بزاتهم الموحدة السوداء وكل واحد يحمل كتاب صلاة (سيدور) ويقف أمام الحائط المرتفع ليقرأ جزءًا من التوراة.

على مدى سنوات طويلة ماضية فعل اليهود هذا، ولكن ذلك السبت في شهر سبتمبر أيلول عام ١٩٢٩ كان مختلفًا، الربانيون حثوا الرجال بأن يكونوا بقدر الامكان مُتَّحدين في صلاة جماعية ليبينوا تصميمهم على حقهم المزعوم، ولم يكن ذلك يقصد منه فقط التعبير

عن عقيدتهم، لكن أيضًا كان رمزًا واضحًا لصيهونيتهم – وتذكيرًا للشعب العربي، الذي يفوقهم عددًا بشكل كبير أنهم لن يخافوهم في تحد سافر للمشاعر العربية.

كانت هناك إشاعات متواصلة تقول بإن المسلمين يزدادون غضبًا مما يشاهدونه من التوسع الصهيوني، بدأت هذه المخاوف مع صدور وعد بلفور عام ١٩١٧، والتزام بريطانيا بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين، كان هذا مثيرًا لغضب العرب الذين عاشوا هناك والذين ترجع جذورهم إلى آلاف السنين، الأرض التي زرعوها لعدة قرون تصبح مهددة وربما تؤخذ منهم من الصهيونية وحُماتهم البريطانيين، الذين جاءوا بنهاية الحرب العالمية الأولى ليضعوا فلسطين تحت انتدابهم، البريطانيون حكموا كما فعلوا في المناطق الأخرى من الإمبراطورية محاولين إرضاء الطرفين، وكانت تلك صيغة لإعداد كارثة، ازدادت وتيرة التوتر بين العرب واليهود وحصلت هناك مناوشات وإراقة دماء حول محاولات اليهود بناء معابد لهم وأماكن للصلاة، وكان اليهود قد صمموا بعناد على أن يمارسوا صلواتهم على حائط المبكى في القدس، باعتبار أن ذلك جوهر طقوسهم الدينية.

وقت صلاة الظهر والتي تعرف عند اليهود بصلاة السمع كان هناك أكثر من ألف شخص يقرأون بصوت مرتفع الكلمات القديمة جدًّا في الكتاب المقدس (التوراة) أمام حائط المبكى، وكان ارتفاع أصواتهم

وانخفاضها له إيقاع متناغم، ثم وبسرعة مذهلة انهالت عليهم حجارة وزجاجات مكسورة وعلب مملوءة بأتربة الأنقاض، هجوم قام به العرب من نقاط حول حائط المبكى، وانطلق أول وابل من الرصاص من بنادق المسلمين القديمة سقط يهود وتم جرهم بعيدًا.

في تلك الليلة اجتمع زعماء اليشوف (زعماء الجالية اليهودية في فلسطين) وبسرعة أدركوا أن مظاهرتهم لم يكن قد خُطط لها جيدًا وكان ينقصها نقطة رئيسية واحدة، وهي عدم المعرفة المسبقة بالهجوم العربي، وذكروا في ذلك الاجتماع أن عليهم أن يتذكروا بأنهم في عهد الملك داود اعتمدوا على الاستخبارات القوية كما جاء في التوراة، فقرروا الاعتماد على التجسس والمعلومات الاستخباراتية التي يجب جمعها لتجنب أي هجوم مفاجئ من العرب، وفي ذلك الاجتماع بذرت البذور التي سوف تصبح يومًا من الأيام أضخم خدمات استخباراتية في العالم الحديث – الموساد – غير أن خلق الموساد كان لا يزال بعيدًا حوالي ربع قرن من ذلك الوقت، كل ما يستطيع زعماء الجالية اليهودية أن يقترحوه كخطوة عملية أولى في تلك الليلة من شهر سبتمبر هو تجميع كل الأموال التي يتمكنوا من توفيرها، ومناشدة جيرانهم ليقوموا بنفس الخطوة، المال يمكن أن يستعمل في رشوة العرب الذين لا زال اليهود مقبولين لديهم، والذين يمكنهم أن يعطوا تحذيرات مبكرة عن أي هجمات أخرى وتجييش أعداد كبيرة من المخبرين والجواسيس لهذه الغاية.

في غضون ذلك قرر اليهود ممارسة صلواتهم على حائط المبكى دون الاعتماد على البريطانيين لحمايتهم، إذ تتولى منظمة الهجناه حمايتهم، والهجناه هي المليشيا اليهودية المُشكَّلة حديثًا، وفي الأشهر التي تلت جاء مزيج من التحذيرات المسبقة ووجود المليشيا (الهجناه) مكَّن مواجهة الهجمات العربية، وكان الهدوء النسبي بين العرب واليهود قد ساد خلال السنوات الخمس التي تلت تلك الأحداث.

في تلك الفترة واصل اليهود بشكل سريّ في توسيع دائرة تجمعهم الاستخباري، ولم يكن لهذا التجمع اسم رسمي محدد وتواصل تجنيد العرب على قاعدة التخصص، الباعة المتجولون الذين يعملون في القدس والأحياء العربية والصبيان من صباغي الأحذية الذين يلمِّعون أحذية ضباط الانتداب كانوا على جداول الرواتب، أي يهودي كان بامكانه تجنيد جاسوس عربي والشرط الوحيد أن تكون المعلومات مشتركة، بالتأكيد ولكن ببطء حصل "اليشوف" على معلومات هامة ليس فقط عن العرب بل وأيضًا عن النوايا البريطانية.

اعتلاء أدولف هتلر سدة الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣ كان مؤشرًا على بدء الهجرة الجماعية لليهود الألمان إلى فلسطين، في عام ١٩٣٦ كان أكثر من ثلاثمائة ألف يهودي عبروا من أوروبا ووصلوا إلى الأرض المقدسة، كثيرون منهم كانوا معوزين وحالتهم صعبة إلا أن اليشوف قام بتوفير الطعام والمأوى لهم، وخلال أشهر شكَّل اليهود ثلث السكان في البلاد.

وجاءت ردود الفعل من العرب كما حصل سابقًا، فمِن على المآذن في مئات المساجد انطلقت صيحات الأئمة لطرد اليهود من الأرض الفلسطينية، في كل الأماكن الدينية العربية اجتمع المستشارون العرب وجاءت نفس الأصوات الغاضبة احتجاجًا: "علينا أن نوقف اليهود من أخذ أرضنا وأن نوقف البريطانيين من إعطائهم السلاح وتدريبهم".

واصل البريطانيون في محاولات استرضاء الجانبين، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، في عام ١٩٣٦ اندلع قتال متقطع أدى إلى تمرد شامل ضد البريطانيين واليهود، قمع البريطانيون بلا هوادة تلك الثورة غير أن اليهود أدركوا أن المسألة ستكون مسألة وقت فقط، فقد يعود العرب بعدها ليضربوا بعنف مجددًا.

على طول البلاد اندفع اليهود للانضمام إلى منظمة "الهجناه" وأصبحوا جوهر الجيش السري الهائل، قوة بدنية وخبث كثعالب الصحراء في النقب..

وامتدت شبكة المخبرين العرب وأقيمت دائرة للهجناه لتغذية الخلافات العربية العربية عبر التضليل، الرجال الذين أصبحوا أسطوريين في مجتمع المخابرات الإسرائيلية تعلموا مهاراتهم خلال فترة التكوين قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، الهجناه – الكلمة تعني "الدفاع" بالعبرية – أصبحت أفضل القوى المخابراتية في الأراضي المقدسة.

الحرب العالمية الثانية جلبت سلامًا مجددًا غير مستقر إلى فلسطين، شعر اليهود والعرب بالمستقبل القاتم الذي سوف يحل بكليهما إذا ربح النازيون الحرب، أول تفصيل لما كان يحصل في معسكرات الموت الأوروبية قد وصل إلى "اليشوف"، دافيد بن غوريون وإسحق رابين كانا من بين أولئك الذين حضروا اجتماعًا في حيفا عام ١٩٤٢، كان هناك إجماع بأن الناجين من المحرقة (الهولوكوست) النازية ينبغي إحضارهم إلى فلسطين، لا أحد يستطيع أن يقدر كم كان عددهم، ولكن كل واحد من اليهود كان يدرك أن وصول اللاجئين من أوروبا سوف يعيد إشعال فتيل المواجهة مع العرب، وفي هذا الوقت كانت بريطانيا تقول باستمرار إنها سوف ترفض السماح للناجين من المحرقة النازية من الدخول إلى فلسطين بعد أن يكون هتلر قد هزم، على أساس أن ذلك سوف يخلق اختلالاً في التوازن الديمغرافي في فلسطين.

حث بن غوريون على رفع مستوى طاقة مخابرات الهجناه، ولاقى ذلك التأييد الكامل من المجتمعين، إذ قال "يجب تجنيد مخبرين أكثر وأن تشكل وحدة مكافحة التجسس، لتشمل اليهود الذين كانوا يتعاونون مع البريطانيين، واقتلاع الشيوعيين اليهود والمنشقين من وسطنا"، الوحدة الجديدة كانت قد عرفت بالعبرية بريغول هاجدي (الجاسوس الفتى)، وكانت بقيادة الضابط الفرنسي الأجنبي الذي يعمل تحت غطاء رجل تسويق متجول.

فوراً كان يحول ما يصل إليه من النساء اللواتي يعاشرن ضباط الانتداب، وأصحاب الحوانيت الذين تاجروا مع البريطانيين وأصحاب المقاهي الذين رحبوا بهم، وفي عمق الليل أحضر المتسببون أمام المحاكم العسكرية التابعة للهجناه، المذنبون إما يكونوا قد حكم عليهم بالضرب أو اعدموا على تلال القدس بطلقة واحدة في مؤخرة الرأس.

في عام ١٩٤٥ أضافت الهجناه وحدة مسؤولة عن شراء الأسلحة، وكانت مخابئ الإيطاليين والألمان للأسلحة التي تم الاستيلاء عليها في شمال أفريقيا بعد هزيمة رومل، قد هُربت من قِبل الجنود اليهود الذين كانوا في خدمة الحلفاء، عبر صحراء سيناء المصرية إلى فلسطين، جاءت الأسلحة في شاحنات قديمة، وعن طريق قوافل الجمال، وخُزنت في كهوف في البرية في المكان الذي حاول فيه الشيطان أن يغوي السيد المسيح عليه السلام، أحد المخابئ كان قريبًا من مكان مخطوطات البحر الميت التي كانت تنتظر الاكتشاف.

بعد هزيمة اليابان في شهر أغسطس عام ١٩٤٥ انتهت الحرب، اليهود الذين خدموا في وحدات استخبارات الحلفاء العسكرية وصلوا ليعطوا الخبرة للهجناه، العناصر كانت في مكانها للتعامل مع ما تنبأ به بن غوريون "الحرب من أجل إقامة دولة إسرائيل"، والتي سميت حرب الاستقلال، نقطة الأثارة أنه يعرف أنها عملية غير مسبوقة لجلب الناجين من الهولوكوست من أوروبا، بداية جاءوا

بالمئات ثم بالآلاف ثم بعشرات الآلاف، الكثير منهم كانوا لا زالوا يرتدون الزي الخاص بمعسكرات الاعتقال الألمانية، كل واحد منهم موشوم برقم تعريف نازي، جاءوا على الطرق البرية وفي السكك الحديدية عبر البلقان ثم عبروا البحر الأبيض المتوسط إلى شواطئ فلسطين، كل سفينة متوفرة قد تم شراؤها أو استئجارها من قبل وكالات الإغاثة في الولايات المتحدة، وغالبًا بأسعار مرتفعة جدًا، وشملت سفن شحن غير نظامية والبواخر والسفن الساحلية وسفن المراسي، ومن شواطئ النورماندي قوارب نهرية، أي شيء يمكن أن يعوم على سطح الماء قد ضم إلى الخدمة.

بانتظار الناجين على الشواطئ بين حيفا وتل أبيب كان بعض الجنود البريطانيين الذين سبق وأن نقلوا إلى انجلترا من دنكرك، كانوا هناك لينفذوا أوامر حكومتهم بمنع الناجين من المحرقة النازية من الدخول إلى فلسطين، كانت هناك اشتباكات ولكن يبدو أن الجنود ربما تذكروا إنقاذهم الخاص، فقد نظروا إلى المسألة من زاوية أخرى حيث كان قاربًا يحمل لاجئين يصارع الأمواج على الشاطئ.

رأى بن غورين أن هذه الشفقة ليست كافية، فقد حان الوقت لإنهاء الانتداب البريطاني ولا يتم ذلك إلا باستعمال القوة، عام ١٩٤٦ تمكن بن غوريون من توحيد الحركات السيئة اليهودية المختلفة، أولاً بالروح الجامحة لأولئك المستوطنين الأوائل وثانيًا إعطاء الأثارة لحرب عصابات ضد البريطانيين والعرب معًا.

كل قائد يهودي كان يعرف أنها مقامرة خطيرة، فالحرب على جبهتين من شأنها أن تؤدي إلى نضوب مصادرهم المحدودة، وأن نتائج الفشل سوف تكون وخيمة، بن غوريون أمر بأنه لا يتحمل سياسة ممنوعة، وفورًا بدأ فهرس الفظائع التي كانت مروعة والتي كانت متساوية على الجانبين، اليهود كانوا يقتلون لمجرد الاشتباه بتعاونهم مع الهجناه، والجنود البريطانيون كانوا يتعرضون لإطلاق النار ويسقطون قتلى وتضرب معسكراتهم بالقنابل، أما القرى العربية فقد أشعلت فيها النيران وكانت ضراوة تلك الحرب تشبه الضراوة التي سادت في القرون الوسطى.

للهجناه كانت الاستخبارات حرجة وحساسة، ليس فقط في إشاعة التضليل فحسب بل لإعطاء الانطباع للبريطانيين والعرب بأن لليهود رجالاً أكثر مما كان يعرف، فوجد البريطانيون أنفسهم أنهم يطاردون عدوًا خفيًا، وكانت قوات الانتداب قد بدأت معنوياتها تتدهور.

حاولت الولايات المتحدة التوسط للوصول إلى صفقة عام ١٩٤٦ حاثين بريطانيا على أن تسمح لمائة ألف يهودي من الناجين من المحرقة الألمانية لدخول فلسطين، بريطانيا رفضت هذا الطلب واستمر القتال على أشده، وأخيرًا في شهر فبراير/ شباط ١٩٤٧ قرر البريطانيون ترك فلسطين في الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨ على أن تقوم هيئة الأمم المتحدة بالتعامل مع المشاكل الفلسطينية التي قد تؤدي إلى قيام دولة إسرائيل.

أدرك بن غوريون وقادته أن الصراع لا زال صراعًا مع العرب، وأرادوا التأكد أن الأمة الوليدة لن تُخنق في مولدها، ورأوا أنه يجب عليهم مواصلة الاعتماد على الاستخبارات الفائقة، فحصلوا على بيانات حيوية عن المعنويات العربية والقوة العسكرية التي لديهم، وتمركز الجواسيس اليهود في القاهرة وعمان، يسرقون خطط الهجوم المرتقب من الجيوش المصرية والأردنية، عندما بدأ ما عُرف بحرب الاستقلال حقق الإسرائيليون انتصارات عسكرية مذهلة، ولكن أيضًا أصبح واضحًا إلى بن غوريون بينما تستمر الحرب أن النصر الأخير ينبغي أن يكون متوقعًا في ضوء الفصل بين طموحات السياسيين والعسكر، وأخيرًا في عام ١٩٤٩ لم يكن ذلك الفصل قد سوي بشكل نهائي، مما أدى إلى النزاع داخل مجتمع المخابرات الإسرائيلية حول المسؤوليات في أوقات السلم.

بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل، أقام خمس خدمات استخباراتية لتعمل في الداخل والخارج، الخدمات عبر البحار شكلت نفسها على غرار خدمات الاستخبارات البريطانية والفرنسية، كل الخدمات وافقت على العمل مع الإسرائيليين، وأقيمت اتصالات مع مكتب الخدمات الاستراتيجية الأمريكي في واشنطن بوساطة رئيس وكالة الاستخبارات الإيطالية "جيمس جيرسي انجلتيون" وارتباطه بالجواسيس الإسرائيليين الجدد، ربما يلعب دورًا صعبًا في بناء الجسور بين المخابرتين.

على الرغم من هذه البداية الواعدة فإن أحلام بن غوريون بعمل المنظمات الاستخباراتية بانسجام قد ماتت في مخاض ولادة أمة تناضل بنفسها من أجل هوية متماسكة، استعراض العضلات بقى الأمر اليومي، والوزراء في حكومة بن غوريون وكذلك الرسميين قد حاربوا من أجل السلطة والمراكز، وكانت هناك مصادمات على كافة المستويات، من يريد تنسيق الاستراتيجية الاستخباراتية؟ من يريد تقييم البيانات الأولية؟ من الذي سيقوم بتجنيد الجواسيس؟ ومن الذي يجب أن يطلع على التقارير أولاً؟ ومن يقوم بترجمة المعلومات للزعماء السياسيين؟.

لم يكن هناك المزيد من المناورات التي لا هوادة فيها بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، كل جهة منهما ادعت حقها في العمل في الخارج، "ايسار هاريل" العامل الصغير شعر بأن زملاءه يعتقدون أن الاستخبارات تعمل في ضوء الرومانسية والمغامرة، فتظاهروا بأن يكونوا خبراء في كل طرق العالم، وحاولوا أن يسلكوا كجواسيس دوليين خياليين يستمتعون بعظمتهم كأنهم يعيشون في ظل الخيط الرفيع بين القانون والإجازة الرسمية.

في غضون ذلك استمر العرب في المقاومة، وبقنابلهم وشراكهم، جيوش سوريا ومصر والأردن ولبنان لا زالت تهدد، خلفهم ملايين من العرب كانوا على استعداد لإعلان الجهاد (الحرب المقدسة) ولا توجد أمة في العالم تكون قد ولدت في مثل هذه البيئة المعادية مثل إسرائيل.

بالنسبة إلى بن غوريون كان هناك غالبًا شعور بشأن الطريقة التي نظر شعبه إليه بها لحمايتهم، بالطريقة التي كان زعماء إسرائيل الكبار قد فعلوا دائمًا، ولكنه كان يعرف أنه ليس نبيًا وأنه فقط محارب شوارع مقروص بشدة، والذي كسب حرب الاستقلال ضد الأعداء العرب الذين هاجموه بقوات تفوق ما لديه بعشرين ضعفًا ولم يكن هناك نصر أكبر منذ أيام الصبي الراعي داود، الذي قتل جالوت وهزم الفلسطينيين.

لا زال العدو لم يبتعد بل أصبح أذكى وأقسى لا يرحم وبدأ يضرب مثل اللص في الليل يقتل بدون تأنيب الضمير قبل أن يتلاشى، استمر التنافس والشجار والقنص لمدة أربع سنوات، في كل الاجتماعات التي ترأسها بن غوريون في محاولات لحل الأمور بين مجتمع الاستخبارات، خطة واعدة لوزارة الخارجية باستعمال دبلوماسي فرنسي جاسوسًا في القاهرة قد أحبطت من قِبل وزارة الدفاع التي أرادت أن يكون رجلها الخاص لهذه المهمة، الضابط الشاب بدون خبرة في عمل المخابرات ألقي عليه القبض خلال أسابيع من ضباط الأمن المصريين، الوكلاء الإسرائيليون في أوروبا تم اكتشافهم بأنهم يعملون في السوق السوداء بغزارة لتمويل عملهم، حيث لم تكن هنا ميزانيات كافية تغطي أنشطة التجسس، المحاولات لتجنيد قوات الدروز المعتدلين في لبنان قد انتهت عندما اختلفت الوكالات الإسرائيلية المتنافسة على كيفية استعمالهم، غالبًا

المشاريع الضخمة تحطمت بسبب الشكوك المشتركة. الرجال الأقوياء في ذلك اليوم؛ كانوا وزير الخارجية الإسرائيلي ورئيس الأركان والسفراء جميعهم، ناضلوا لتأسيس التفوق لخدماتهم على الآخرين.

البعض أراد أن يكون تسليط الضوء على جمع المعلومات الاقتصادية والسياسية، والبعض فكروا بأن الاستخبارات يجب أن تتركز كليًا على القوة العسكرية للعدو، السفير الإسرائيلي لدى فرنسا أصر على أن تكون الاستخبارات تسير على شاكلة المقاومة الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية، بحيث يتحرك كل يهودي في الأرض، السفير في واشنطن أراد أن يكون جواسيسه محميين بغطاء دبلوماسي وأن يكونوا جزءًا من أعمال السفارة الاعتيادية كي يتسنى أن يكونوا فوق الشبهات، الوزير الإسرائيلي لبوخارست أراد أن يعمل جواسيسه على طول خطوط الكي جي بي (المخابرات السوفيتية) ويكونوا قساة، الوزير الإسرائيلي في بيونس ايريس طلب أن يعمل الوكلاء على غرار دور الكنيسة الكاثوليكية في مساعدة النازيين في الأرجنتين، بن غوريون أصغى بصبر إلى كل اقتراح.

■ الفصل العاشر

إعادة تشكيل الاستخبارات الإسرائيلية

بالنهاية وفي الثاني من مارس عام ١٩٥١ استدعى دافيد بن غوريون رؤساء خمس وكالات استخبارات إلى مكتبه، وأخبرهم أنه سوف ينيط مسألة أنشطة جميع الاستخبارات الإسرائيلية في الخارج بمؤسسة جديدة تسمى (هاموساد لي تيوم) بمعنى معهد التنسيق، وسوف يكون لها ميزانية ابتدائية قيمتها عشرون ألف جنيه إسترليني تنفق خمسة آلاف منها على المهمات الخاصة ولكن بموافقة مسبقة، الوكالة الجديدة يمكنها أخذ موظفيها من وكالات الاستخبارات القائمة، وقرر بن غوريون أن تسمى الوكالة الجديدة (الموساد) فقط. موساد، لكل الأغراض الإدارية والسياسية سوف تكون تحت صلاحيات وزارة الخارجية، على العموم سيكون لها كبار الضباط يمثلون المنظمات الأخرى في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية مثل: الشين بيت، الأمن الداخلي، أمان للاستخبارات العسكرية، استخبارات القوة الجوية والاستخبارات البحرية، عمل الضباط سوف يكون إطلاع الموساد على الطلبات المعينة لزبائنهم وفي حالة عدم الاتفاق على أي طلب فسوف تحال المسألة إلى مكتب رئيس الوزراء. في هذه الفظاظة

الاعتيادية قال بن غوريون: "عليكم أن تعطوا الموساد قائمة تسوّقكم والموساد بدوره سوف يذهب ويحضر البضائع، ليس من اختصاصكم أن تعرفوا أين هم يتسوقون أو ما يدفعوه ثمنًا للبضائع".

بن غوريون يقوم بدور لجنة إشراف على الخدمات الجديدة، في مذكرته للرئيس الأول "روبين شالوح" طلب رئيس الوزراء أن يعمل الموساد تحت إمرته وسوف يعمل طِبقًا لتعليماتي وأن ترسل التقارير له باستمرار.

القواعد الأساسية قد وضعت، ٢٨ سنة من الأحداث، بعد أن جلس أولئك اليهود في ليلة مقدسية في سبتمبر ١٩٢٩ يناقشون الأهمية الحيوية للاستخبارات في منع الهجمات العربية، فقد كان لأحفادهم خدمة الاستخبارات التي أصبحت أكبر من أي استخبارات أخرى في العالم.

مولد الموساد مثل إسرائيل كان بهدوء، الخدمات قد وضعت حلقة من الجواسيس في العراق وقد عملت تلك الحلقة سنوات عدة تحت إدارة دائرة قوات الدفاع السياسية، العمل الرئيسي للحلقة كان أن تخترق المراتب العليا في الحربية العراقية، وتجري شبكة هجرة سرية لإخراج اليهود العراقيين من العراق إلى إسرائيل. في شهر مايو/ أيار ١٩٥١ فقط بعد تسعة اشهر بعد توقيع بن غوريون على أمر بعث الموساد، انقض وكلاء الأمن العراقيين في بغداد على الحلقة،

اثنان من الوكلاء الإسرائيليين تم اعتقالهم إلى جانب العراقيين اليهود والعرب الذين أخذوا رشاوى ليسهلوا شبكة الهروب التي امتدت عبر الشرق الأوسط، ٢٨ اتهموا بالتجسس، الوكيلان حكم عليهما بالإعدام، ١٧ شخصًا حكم عليهم بالسجن المؤبد والآخرون أطلق سراحهم كمثال على عدالة القانون العراقي.

كِلا جاسوسي الموساد ثم إخلاء سبيلهما لاحقًا من سجن عراقي كانا فيه يتعرضان إلى التعذيب القاسي، وذلك مقابل مبلغ من المال دفع في حساب في بنك سويسري باسم وزير الداخلية العراقي، تبع ذلك سريعًا كسر للجليد، جاسوس الدائرة السياسية في روما "ثيودور جروس" الآن يعمل للموساد تحت ترتيب جديد. في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٥٢ رئيس الشين بيت (خدمات إسرائيل للأمن الداخلي) "ايسد هارتل" تسلم برهانًا قاطعًا أن "جروس" كان عميلاً مزدوجًا على قائمة رواتب الخدمات السرية المصرية، هرتل قرر أن يطير إلى روما حيث تمكن هناك من إقناع "جروس" بالعودة معه إلى تل أبيب مقنعًا الخائن بأنه على وشك أن يُعطى مركزًا أعلى في الشين بيت، في تل أبيب حوكم "جروس" سرًا وأدين وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا ليموت في السجن.

- **التقسيم:**

أوصت لجنة الأمم المتحدة بشأن فلسطين بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية، ودعت إلى وضع القدس تحت الإدارة الدولية للجمعية العامة للأمم المتحدة التي اعتمدت هذه الخطة يوم ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ فأصدرت القرار رقم (١٨١)، وكان وراء ذلك القرار الدعم الأمريكي والسوفيتي، وعلى وجه الخصوص الدعم الذي قدمه الرئيس الأمريكي "هاري ترومان"، وقد ساهمت عوامل كثيرة في قرار ترومان مساندة التقسيم من قبيل السياسة الداخلية والضغط الصهيوني المكثف، لكن ترومان كتب في مذكراته "أن الشيء المناسب والشيء الذي فعلت، هو ما اعتقد أنه الحق.. وليذهبوا بعدها إلى الجحيم جميعًا"، وكان أول من ذهب إلى الجحيم نتيجة ذلك القرار المشئوم هو الشعب الفلسطيني، ولا زال يعاني من جحيم تلك السياسة الغربية والصهيونية.

قبل اليهود بقرار الأمم المتحدة ورفضه العرب، ومن الطبيعي أن الذي ليس له الحق في شيء إذا منحته جهة دولية ذلك الحق فإنه يسارع للقبول لأنه يكون حصل على شيء من غير حقه بل جاءه مجانًا فلماذا يرفض؟، أما أصحاب الحق الشرعي وهم العرب فمن المؤكد أنهم سوف يرفضون مثل هذه القرارات التعسفية غير العادلة.

قرار تقسيم فلسطين يقضي بتقسيم الأرض ضمن إطار خطة معقدة إلى قسمين متساويين تفصلهما حدود متعرجة، وكان القصد هو قيام اتحاد اقتصادي وحدود مفتوحة بين البلدين، حين صدور قرار التقسيم كان العرب يمتلكون ٩٠ بالمائة من الأرض الفلسطينية، واليهود ما لا يزيد عن ٨ بالمائة من الأراضي، وكان عدد اليهود الذين يعيشون في فلسطين آنذاك حوالي ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، بينما كان عدد العرب الفلسطينيين ١,٢ مليون ومائتي ألف نسمة، غير أنه سرعان ما تبين أن هذه الخطة لن تؤدي إلى نتيجة فمن شأن العداء المتبادل أن يجعل قبول الآخر مستحيلاً في كلا المجتمعين، وكانت الأمم المتحدة ترغب في تدويل القدس بالقوة، وما كانت قادرة على ذلك، وقررت جامعة الدول العربية الحرب مع اليهود لتخليص فلسطين من اليهود، ولكن بكل أسف كان واقع الأمر غير ذلك حيث أن كل دولة عربية في جامعة الدول العربية كان لها برنامجها الخاص، بحيث يكون لكل منها حصة في الذبيحة الدسمة.

▪ الفصل الحادي عشر

فلسطين والحروب العربية الإسرائيلية

١- حرب عام ١٩٤٨:

تنقسم حرب عام ١٩٤٨ إلى فترة ما قبل إعلان دولة اليهود تحت مسمى "دولة إسرائيل" وفترة ما بعد الإعلان عن قيام الدولة، بدأت اشتباكات بين القوات السرية الإسرائيلية والجماعات غير النظامية العربية فور صدور قرار التقسيم، ولم تشارك الدول العربية في القتال آنذاك، بيد أن الجيش الأردني ساعد في الهجوم على مستوطنة غوش عتسيون وعلى مستوطنة صغيرة من المستوطنات في الأراضي المخصصة للدولة الفلسطينية جنوب القدس.

٢- مرحلة ما بعد إعلان الدولة:

خلال الفترة التي سبقت إعلان الدولة الإسرائيلية تواجد جيشان من المتطوعين، وتمركز المقاتلون في البلدات العربية، وقاموا بعمليات هجومية على المدن والقرى اليهودية إبان وجود البريطانيين، وسمحت بريطانيا لفوزي القاوقجي وقواته غير النظامية بدخول فلسطين من سورية بعد الاتفاق معه على أنه لن يشارك في

العمليات العسكرية، لكنه سرعان ما خرق الاتفاق وقام بالهجوم عبر الجليل.

أعمال العنف اندلعت في القدس يومي ٣٠ تشرين الثاني و ١ كانون الأول عام ١٩٤٧ وتمكنت القوات الفلسطينية غير النظامية من قطع إمدادات الطعام والمياه والوقود عن القدس اليهودية خلال حصار طويل، بدأ في أواخر عام ١٩٤٧، واندلع القتال والعنف على الفور في جميع أنحاء البلاد، وتضمن ذلك كمائن للمتنقلين ومحاصرة القدس، وأثيرت أيضًا أعمال عنف في مصفاة البترول في حيفا، وضد مستوطنة غوش عتسيون (نفذها الفلسطينيون) ودير ياسين (نفذها اليهود)، وبدأ العرب يتعرضون إلى المجازر في كل مكان في فلسطين على أيادي العصابات الصهيونية، الأمر الذي أجبرهم على الرحيل بسبب المجازر اليهودية وبناء على وعود من الدول العربية التي طلبت من الفلسطينيين الابتعاد عن البؤر المأهولة باليهود لفترة قصيرة، أو لحين تحرير فلسطين من اليهود والذي لن يستغرق أكثر من أسبوعين، حتى لا يتعرضوا لقصف مدافع جيوشهم، التي سوف تدخل إلى فلسطين بعد الخامس عشر من أيار عام ١٩٤٨ موعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، استجاب الفلسطينيون إلى هذا النداء العربي وهجروا مدنهم وقراهم القريبة من التجمعات اليهودية، على أمل العودة خلال شهر على أبعد تقدير إلى قراهم ومدنهم حسب الوعد العربي، ولا زالوا ينتظرون العودة بعد مضي أكثر من ٦٠ عامًا على النكبة التي حلت بهم عام١٩٤٨.

٣- دخول الجيوش العربية إلى فلسطين:

كانت حكومات الدول العربية المجاورة أكثر ترددًا مما يعتقد عمومًا للدخول في حرب ضد إسرائيل، على الرغم من التصريحات النارية التي يطلقونها، ولكن الضغط الشعبي اقترن بالخوف من أن الدول العربية الأخرى قد تتفوق عليهم في القتال في فلسطين، وقد ساهم ذلك في التأثير على كل من سورية والأردن ومصر في اتخاذ قرار الدخول في حرب مع إسرائيل، وكانت الدول العربية التي دخلت جيوشها إلى فلسطين تقاتل وفق خطة موحدة من الناحية الرسمية لكن التنسيق بينها كان ضعيفًا في واقع الأمر.

أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل في يوم ١٤ أيار عام ١٩٤٨ وانسحب البريطانيون من فلسطين، وخلال الأيام والأسابيع التالية هاجمت الدول العربية المجاورة لفلسطين، وتواصل القتال لفترات وجيزة تخللتها اتفاقات وقف إطلاق نار، وأعلنت هدنة من الجانبين في حزيران إلى تموز ١٩٤٨ ثم من ١٩ تموز حتى ١٥ تشرين الأول ١٩٤٨ سجل الجيشان المصري والسوري نجاحات ملحوظة في المرحلة الأولى وتمكن المصريون المدعومون بالدبابات والمدفعية والمدرعات والطائرات التي لم تكن إسرائيل تملكها أن يعزلوا النقب كله ويحتلوا أجزاء من الأراضي الفلسطينية التي خصصها قرار التقسيم للدولة اليهودية، في كتابه "في ميادين فلسطين" يروي

ناشط السلام الإسرائيلي يوري أفنيري كيف أن الجيش المصري حاول حشد المدرعات لضرب تل أبيب، وكيف منعت مصر والأردن محاولات فلسطينية لإقامة دولة حقيقة، والتزم الأردن بعد مهاجمة المناطق المخصصة للدولة اليهودية، ولكن سورية ومصر لم تفعلا ذلك، تم صد الهجوم بواسطة عدد قليل من طائرات مسرشميت التي وصلت مؤخرًا وتم شراؤها من تشيكوسلوفاكيا. أحرز السوريون بعض التقدم في الأراضي التي خصصها التقسيم للدولة الفلسطينية، أما الأردن فلم يهاجم الأراضي اليهودية ومنع الفيلق العربي والقوات العسكرية من محاصرة القدس اليهودية من موقعة المحصن في اللطرون. لم يكن ممكنًا التغلب على المواقع الأردنية في اللطرون على الرغم من العديد من الهجمات الدموية، وبعد الالتفاف على ذلك انشأ الإسرائيليون في نهاية المطاف "طريق بورما" الذي تم إنجازه في حزيران عام ١٩٤٨ فتم كسر الحصار المفروض على القدس.

٤- الوقف الأول لإطلاق النار:

أعطى وقف إطلاق النار في حزيران بموجب الهدنة المعقودة بين الأطراف المتحاربة، أعطى للجميع وقتًا لإعادة تجميع القوات ولتنظيمها، وهذا يمثل مرحلة حرجة في المعارك، الجانب العربي ارتكب خطأ حاسمًا في قبول الهدنة، إذ استغل الإسرائيليون وقف إطلاق النار لإعادة تنظيم الجيش وحشده وتدريبه، فأصبحوا قادرين

على إحضار شحنات كبيرة من الأسلحة، على الرغم من أحكام المعاهدة وعلى تدريب وتنمية قوة مقاتلة حقيقية مكونة من ٦٠,٠٠٠ جندي مما أعطاهم تفوقا فعليًا في العدد والعتاد لأول مرة، لعل الهدنة تمكنت من إنقاذ القدس أن كان أهلها مهددون بالموت جوعًا، وخلال الهدنة الطويلة اندمجت الجيوش السرية للهاغانا والبالماخ وإرغون وليهي في قوة مقاتلة واحدة هي جيش الدفاع الإسرائيلي.

٥- استئناف القتال:

كانت الحرب مع المصريين حرب مواقع لأنهم كانوا معزولين في "الفلوجة" وهي جيب وسط إسرائيل، وبعد انتهاء وقف إطلاق النار نقلت إسرائيل الحرب إلى داخل الأراضي المصرية، إذ دخلت قواتها سيناء، ثم اضطر الجيش الإسرائيلي إلى الانسحاب بعد مواجهات مع الطائرات البريطانية، في الوسط اقتطع الجيش الإسرائيلي رقعة من الأرض لفتح "ممر" بين القدس وبقية إسرائيل، خلال عشرة أيام من القتال بين هدنتين احتل الإسرائيليون مدينتي اللد والرملة اللتين كانتا تغلقان الطريق إلى القدس وتم طرد معظم الفلسطينيين الذين يعيشون فيهما بعد أن قتل الكثير منهم، كما دمروا العديد من القرى الفلسطينية الصغيرة المحيطة بتل أبيب، وهكذا لم يبقوا عمليًا على فلسطينيين في وسط إسرائيل.

٦- الهزيمة العربية الأولى:

بالرغم من النكسات الأولية التي حلت بإسرائيل في بداية دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فإن تنظيمًا أفضل ونجاحات استخباراتية صهيونية قد تحققت خلال فترة الهدنة الأولى، حيث كان من الخطأ موافقة العرب على الهدنة ووقف إطلاق النار، استغلت إسرائيل الهدنة وعملت على استيراد أسلحة حديثة ومتطورة لمواجهة الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين، فكانت تصل إسرائيل شحنات الأسلحة في الوقت المناسب، مكنتهم من الوصول إلى نصر حاسم على الجيوش العربية، وفقد العرب والفلسطينيون ميزة التفوق الأولى حيث أنهم فشلوا في التنظيم والتوحد، ولما وضعت الحرب أوزارها في عام ١٩٤٩ كانت إسرائيل تسيطر على مناطق أوسع من تلك التي حددتها خطة الأمم المتحدة بقرار التقسيم، فكانت تشكل ٧٨% من المنطقة الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن، ولم تقم الأمم المتحدة بخطوة جادة لتدويل مدينة القدس التي أصبحت نتيجة للحروب مقسمة بين إسرائيل والأردن، يفصل بين قسميها سياج من الأسلاك الشائكة ومنطقة محرمة، ظل الأردن ومصر يحتلان المناطق المخصصة للدولة الفلسطينية المتبقية ثم ضمت مصر قطاع غزة، وضم الأردن الضفة الغربية من نهر الأردن، وفرّ من فلسطين نتيجة لتلك الحرب حوالي ٧٢٦,٠٠٠ من العرب وأصبحوا لاجئين في الدول العربية المجاورة.

في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ دعا قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ إلى وقف القتال وعودة اللاجئين الذي يرغبون بالعودة، وطالب قرار مجلس الأمن رقم ٦٢ بتوقيع اتفاقات هدنة، من شأنها أن تؤدي إلى سلام دائم، وتم رسم حدود إسرائيل على طول الخط الأخضر تبعًا لاتفاقات الهدنة لعام ١٩٤٩، وظلت الدول العربية ترفض الاعتراف بالكيان الصهيوني في تلك الحدود، ولم تحل مشكلة اللاجئين على الرغم من توقف العمليات الحربية، وقد انهارت المفاوضات لأن إسرائيل لم تسمح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيها.

٧- حملة سيناء:

بعد الإطاحة بالملك فاروق في مصر على أيدي الضباط الأحرار برئاسة محمد نجيب وجمال عبد الناصر، قامت مصر ببعض التحركات نحو السلام مع إسرائيل، ومع ذلك جرى عام ١٩٥٤ ضبط شبكة تجسس إسرائيلية حاولت تفجير وكالة الإعلام الأمريكية وغيرها من المؤسسات الأجنبية في مصر، بهدف خلق توتر بين الولايات المتحدة ومصر ومنع تقاربهما، وأعلنت إسرائيل تنصل كل من وزير الدفاع "بنحاس لافون" ورئيس الوزراء "دافيد بن غوريون" من المسؤولية عن ذلك الفعل، وألقى كل منهما اللوم على الآخر حتى أصبحت هذه الحادثة تعرف فيما بعد باسم (قضية لافون) و(العمل المشين)، وعلى أثر الحادث ارتابت مصر من النوايا

الإسرائيلية وبدأت تتفاوض على شراء كميات كبيرة من الأسلحة، ولما رفض الغرب بيعها أسلحة اتجهت إلى بلدان الكتلة الشرقية وتوصلت إلى اتفاق مع "تشيكوسلوفاكيا" وأغلق الرئيس جمال عبد الناصر مضائق تيران وقناة السويس أمام الملاحة الإسرائيلية، وأيقن الاستراتيجيون الإسرائيليون أن مصر تعتزم خوض حرب أو خوض معركة دبلوماسية بعد أن تكمل تسلحها، وفي المقابل بدأت إسرائيل بالبحث عن مصادر للأسلحة أيضًا، وتوصلت إلى إبرام صفقة أسلحة مع فرنسا، شن الفلسطينيون والمصريون سلسلة من الغارات من قطاع غزة عبر الحدود تبعها غارات انتقامية إسرائيلية متزايدة الشدة، وكان رأي موشيه ديان وزير الدفاع آنذاك أن على إسرائيل شن حرب وقائية قبل أن تستكمل مصر أسلحتها الجديدة.

عام ١٩٥٦ تآمرت إسرائيل وفرنسا وبريطانيا في خطة لإلغاء تأميم قناة السويس، على أن تغزو إسرائيل سيناء وتقوم بإنزال مظليين بالقرب من ممرات متلا، في حين تصدر بريطانيا وفرنسا إنذارًا لمصر، ثم بعد الإنذار تزجان بالقوات البرية تحت ذريعة الفصل بين القوات المتحاربة، بدأ تنفيذ الخطة اعتبارًا من يوم ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٥٦ فاحتلت إسرائيل شبة جزيرة سيناء على وجه السرعة، وقد اغضب تصرف إسرائيل وبريطانيا وفرنسا الولايات المتحدة، ودعا قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٩٩٧ إلى الانسحاب الفوري، إلا أن القوات الإسرائيلية ظلت في سيناء عدة

أشهر ثم انسحبت بعد ذلك تحت ضغط الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، خاصة بعد أن حصلت إسرائيل على ضمانات بأن تظل ممرات متلا الدولية مفتوحة أمام الملاحة الإسرائيلية.

٨- بدايات حركة فتح:

ياسر عرفات، نشأ كما يقال في قطاع غزة وكان عضوًا في حزب الإخوان المسلمين، وذلك وفقًا لكتاب "بني موريس" (الضحايا الصالحون) الصادر عام ١٩٩٩، تم تجنيد ياسر عرفات من قبل المخابرات المصرية عندما كان يدرس في القاهرة عام ١٩٥٥ حيث أسس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، وفي عام ١٩٥٧ انتقل إلى الكويت وعمل بالاشتراك مع خليل الوزير (أبو جهاد) وفاروق القدومي وخالد الحسن ومحمود عباس وغيرهم على تأسيس لجنة فلسطين، سميت لاحقًا "حركة التحرير الوطني الفلسطيني" على غرار جبهة التحرير الوطني الجزائرية، غير أن جهات فلسطينية ورجال فكر على معرفة جيدة بياسر عرفات، يقولون إنه لم يكن يومًا من الأيام فلسطينيًا بل كان مغربيًا في أصله ويرجع منبته إلى منطقة "القدوة" في مراكش، وأن غالبية سكان تلك المنطقة من اليهود المغاربة، وأن والده هاجر من مراكش إلى مصر وحصل على "الباشاوية" من الملك فاروق مقابل عشرة آلاف جنيه مصري في بداية العشرينات، والمسمى ياسر عرفات ولد في مصر وتخرج من جامعاتها وقد اختاره جمال عبد الناصر ليرأس حركة التحرير

الفلسطينية، عمومًا البحث في جذور وأصول عرفات لن يوصلنا إلى نتيجة إيجابية حيث أن المسألة أعمق بكثير من معرفة الجذور.

في منتصف أيار عام ١٩٦٧ بدأ الرئيس المصري جمال عبد الناصر إطلاق التصريحات غير المدروسة، وقالت الإذاعة المصرية من القاهرة: "لقد استمر وجود إسرائيل أكثر مما ينبغي، إننا نرحب بالعدوان الإسرائيلي ونرحب بالمعركة التي انتظرناها طويلاً، لقد حانت ساعة الصفر، جاءت المعركة التي سندمر فيها إسرائيل"، في نفس اليوم طلبت مصر انسحاب قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة من سيناء وقطاع غزة، ووافق "يوتانت" الأمين العام للأمم المتحدة على سحب القوات في ١٨ أيار وتم الاعتقاد بأن عبد الناصر كان يأمل في الحقيقة أن لا يسحب "يوتانت" القوات الدولية، وأن يتخذ من وجود قوات الأمم المتحدة ذريعة لعدم فعل أي شيء.

في ٢٣ أيار أغلق ناصر مضائق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، وامتنعت الولايات المتحدة عن الوفاء بالتزاماتها وضمان حق إسرائيل في استخدام الممرات المائية، وتدفق سيل من التصريحات العربية وأعلن رئيس منظمة التحرير آنذاك "أحمد الشقيري": "أنه إذا قامت الحرب فسيكون لدينا امتياز الضربة الأولى ستعيد منظمة التحرير الفلسطينية جميع الصهاينة الذين هاجروا بعد عام ١٩١٧ وسنقضي على دولة إسرائيل".

وعلى الرغم من العبارات النارية؛ يرى المحللون السياسيون الإسرائيليون مثل "آفي شاليم" وغيره أن التنافس بين العرب يقف وراء انزلاقهم بلدًا بعد الآخر في الصراع، مع أنهم ما كانوا يعتزمون الحرب، فيقول شاليم: "إن عبد الناصر ما كان ينوي مهاجمة إسرائيل أبدًا، لقد جرَّته إلى الصراع المناورات السوفيتية والمخاوف السورية ورغبته في قيادة العالم العربي" كما أوضح المحللون، لم تستطع إسرائيل المحافظة على تعبئة عامة محددة، وعندما أصبح واضحًا أن مصر لن تلغي حالة الاستعداد للحرب؛ بدأت إسرائيل الهجوم عليها في ٥ حزيران ١٩٦٧.

كان رئيس الاستخبارات الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٣ "مائير أميت"، وفي تلك الفترة كانت المجموعات البشريَّة الاستخباراتية قد تحولت إلى تجمعات استخباراتية إنسانية في شكل فني، ولم تكن توجد وكالة استخبارات أخرى قادرة على مقارنة وكلاء مائير أميت على الأرض في عملية جمع المعلومات، فقد وضع جواسيس بأعداد كبيرة في كل بلد عربي وعبر أوروبا وفي أمريكا اللاتينية وأفريقيا والولايات المتحدة، جواسيس اخترقوا المخابرات الأردنية التي تعتبر المخابرات الأفضل في خدمات الاستخبارات العربية، كما تمكَّن الجواسيس الإسرائيليون من اختراق المخابرات العسكرية السورية الأشد ضراوة وعنفًا، كانوا رجالاً من ذوي الأعصاب الباردة وقرارات فولاذية لا يجرؤ أي روائي على اختراعها، وفور تعيينه مديرًا عامًّا

للموساد وزَّع مائير أميت مذكرة داخل الخدمة كانت قد سرقت من مكتب ياسر عرفات يقول فيها عرفات: "الموساد لديه اضبارة عن كل واحد فينا، إنهم يعرفون أسماءنا وعناويننا، نحن نعرف أن في كل ملف من ملفاتنا لديهم صورة واحدة هي نسخة عن كيف نكون بدون كوفية والثانية ونحن نرتدي الكوفية، لهذا فليس هناك صعوبة أمام الموساد الإسرائيلي لمتابعتنا سواء كنا بالكوفية أو بدونها".

جنَّد مائير أميت عددًا غير مسبوق من المخبرين العرب وعمل على أساس المبدأ القائل بإن قانون المعادلات سوف يتمكن من اكتشاف عدد ممن سيكون لهم فائدة، العرب المرتشون قد خانوا مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، وكشفوا عن أسلحتهم وبيوتهم الآمنة وترتيبات أسفارهم، عن كل فلسطيني مقاتل قام الموساد باغتياله، دفع مائير للمخبر علاوة قيمتها دولار أمريكي واحد. (يا بلاش- ما أرخص الدم العربي).

بالعودة إلى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ كان يوجد جاسوس للموساد الإسرائيلي أو مخبرًا داخل كل قاعدة جوية مصرية، وفي المقرات الرئيسية للقيادات الحربية العليا في مصر، لم يكن هناك أقل من ثلاثة في القيادة العامة العليا في رئاسات القاهرة من الضباط الذين تمكن مائير أميت من إقناعهم بالعمل لدى الموساد، كيف فعل ذلك ظل سره المحمي بدقة، هناك بعض الأمور تركت بتلك الطريقة بشكل أفضل.

كل مخبر أو وكيل موساد في المكان أعطي بعض التعليمات مثل "الصورة الكبيرة" التي أرادها إلى جانب التفاصيل الصغيرة مثل: كم بعيدًا على الطيار المصري أن يمشي إلى عنابره أو إلى المطعم ليتناول وجباته؟ لأي مدى يكون الضابط قد توقف بسبب حركة المرور السيئة في القاهرة؟ إلى جانب أسئلة كثيرة ينبغي معرفتها ليمكن استعمالها، أحد الجواسيس تمكن من الحصول على عمل "نادل" جرسون في مطعم الضباط في قاعدة الخط الأمامي للمقاتلات الجوية، كل أسبوع يقوم بتزويد تفاصيل استعدادات الطائرات الحربية المصرية ونموذج حياة الطيارين والفنيين: عاداتهم في تعاطي المشروبات وملذاتهم الجنسية كانت من بين المعلومات السرية التي أرسلت بالراديو إلى تل أبيب.

دائرة الحرب النفسية التابعة للموساد الإسرائيلي عمل فيها علماء النفس على مدار الساعة يحضرون الملفات عن الطيارين المصريين والطواقم الأرضية وعن ضباط الصف ومهاراتهم في الطيران، وفيما إذا كانوا وصلوا إلى رتبهم عن طريق المقدرة أو عن طريق النفوذ، ومن لديهم مشاكل الشرب والمترددين على بيوت الدعارة والذين لديهم ميول نحو معاشرة الأولاد جنسيًا، أثناء الليل راجع مائير أميت الملفات باحثًا عن نقاط الضعف لرجال يمكن يبتزهم للعمل لديه، ولم تكن مهمة مسرّة ولكن الاستخبارات غالبًا ما تكون عملاً قذرًا كما يقول.

بدأت عائلات العسكريين المصريين تستلم رسائل مجهولة مودعة في البريد من القاهرة تحمل تفاصيل ضمنية عن سلوك أحبتهم، المخبرون يرسلون إلى تل أبيب تفاصيل خطوط العائلة التي يؤدي بالطيارين أو طواقم الطيران إلى أن يهبوا في أجازات مرضية، ضباط الصف يتلقون مكالمات هاتفية من مجهولين تحمل معلومات عن زملاء في الحياة الخاصة، مدرس في المدرسة استدعي من قبل امرأة بصوت حنون ليخبره أن الطالبة الابنة كانت سيئة بسبب والدها، ضابط كبير لديه عشيق ذكر سري، المهاتفة أفضت بالضابط إلى إطلاق النار على نفسه، هذه الحملة المسعورة سببت خلافات معتبرة في الحربية المصرية وأثلجت صدر مائير أميت.

كانت إسرائيل منذ عام ١٩٦٤ تعاني من أزمة اقتصادية خانقة، وقد ارتفعت فيها نسبة البطالة إلى أعلى مستوياتها، وكانت تحاول اجتياز أزماتها الاقتصادية بشتى الوسائل غير أنها لم تفلح في ذلك فقرر الزعماء الإسرائيليون القيام بحرب توسعية كحل وحيد لأزمات الدولة الاقتصادية إذ وجدت أن التوسع على حساب جيرانها العرب هو الحل الامثل لأوضاعها.

كانت إسرائيل تدار من حزب العمل الإسرائيلي وكان رئيس وزرائها آنذاك "ليفي اشكول" الذي قام بزيارة بريطانيا وأمريكا عام ١٩٦٤ لحشد التأييد والدعم الغربي لإسرائيل في حربها التوسعية التي كانت تعد لها، إلا أن اشكول واجه أزمة في محادثاته في بريطانيا

حيث أخبره السياسيون البريطانيون أن منطقة الشرق الأوسط يحكمها في ذلك الوقت جنرالات عسكريون من العرب، وهؤلاء الجنرالات لا يعرفون الكثير في السياسة، ومن المتوقع أن يثيروا حربًا شاملة في الشرق الأوسط، وأن أوضاع بريطانيا الاقتصادية ودعمها للدولار الأمريكي المتدهور في ذلك نتيجة للحرب الفيتنامية لا يمكّن بريطانيا من دعم إسرائيل في حرب جديدة شاملة في الشرق الأوسط، واقترحوا على اشكول تأجيل تلك الحرب إلى أن تزول أزمات بريطانيا الاقتصادية ليكون في مقدورها الوقوف إلى جانب إسرائيل في حربها مع العرب، من لندن واصل اشكول الرحلة إلى واشنطن حيث لاقى نفس الجواب من البيت الأبيض والاقتراح بتأجيل الحرب لحين تحسن وضع أمريكا الاقتصادي وانتهاء الحرب الفيتنامية. وقد قدر الخبراء الاقتصاديون أن أزمات الغرب سوف تنتهي مع بداية عام ١٩٦٧، لهذا كان على إسرائيل أن تؤجل تلك الحرب إلى عام ١٩٦٧.

وخلال الفترة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٧ كانت إسرائيل تسعى إلى إيجاد مبرر للحرب، فاستغلت الهجمات التي كانت تقوم بها الفصائل الفلسطينية داخل الكيان الصهيوني، وقامت بتتبع أثر المهاجمين الذين كانوا يأتون عبر الأردن ومن سوريا أحيانًا وحمّلت سوريا مسؤولية تلك الهجمات من أجل تأزيم الموقف واستفزاز مصر لإثارة حرب، بمعني أنها نصبت شركًا للعرب، ووقعت مصر فيه بكل بساطة، باعتبار أن مصر كانت ترتبط مع سوريا باتفاق دفاع مشترك، وقامت بغزو سوريا جوًا، واشتبكت مع الطيران السوري بمعركة فقدت

سوريا فيها ست طائرات أسقطتها إسرائيل فتأزم الموقف أكثر، مما دفع مصر لمؤازرة سوريا سياسيًا، وجرى تهديد إسرائيل بحرب إبادة، وطلب الرئيس المصري من الأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية من ممرات متلا، وقد نجحت إسرائيل في استفزاز مصر للدخول في حرب هي تريدها وتخطط لها، وفي شهر أيار/ مايو عام ١٩٦٧ كان واضحًا أن زعيم البلاد الرئيس جمال عبد الناصر يُحضِّر للحرب ضد إسرائيل ردًّا على اعتداءاتها على سوريا، الأمر الذي كانت تريده إسرائيل.

في الساعات الأولى للحرب دمرت إسرائيل أكثر من ٤٠٠ طائرة مصرية وهي رابضة في مطاراتها الحربية من أجل تحقيق التفوق الجوي العام، واحتلت القوات الإسرائيلية بسرعة شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة، وبدأت المدفعية الأردنية بإطلاق القذائف على القدس في اليوم الأول من أيام الحرب، على الرغم من تحذير رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول للأردنيين بالبقاء بعيدًا عن الحرب، ثم تقدم فيلق أردني فاستولى على مقر الأمم المتحدة في القدس، وبعد تحذير إسرائيل مرارًا للملك حسين ودعوته إلى وقف إطلاق النار والانسحاب، احتلت إسرائيل الضفة الغربية والقدس، وقامت المدفعية السورية في مرتفعات الجولان خلال الأيام الأولى من الحرب بقصف أهداف في شمال إسرائيل، قررت إسرائيل بعد فراغها من مصر احتلال مرتفعات الجولان على الرغم من الشكوك التي ساورت القيادة السياسية الإسرائيلية.

في شهر حزيران ١٩٦٧ كان مائير اميت قادرًا على إعطاء قادة سلاح الجو الإسرائيلي الوقت المحدد بالضبط لليوم الذي سوف يوجهون فيه ضربة جوية قاضية ضد القواعد الجوية المصرية، محللوا الموساد أنتجوا خرائط عن الحياة في كافة القواعد الجوية المصرية بين الساعة السابعة والنصف والسابعة وخمس وأربعين دقيقة صباح يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ كانت وحدات الرادارات في حالاتها الأكثر ضعفًا، في تلك الدقائق الخمس عشرة في تلك الليلة كان الموظفون متعبون بعد ورديتهم الطويلة بينما لم تكن بدائلهم التالية قد استنفرت بالكامل وكانت متأخرة غالبًا في الاستلام بسبب الخدمات البطيئة في قاعة المطعم، وجبة الإفطار بين السابعة والربع والسابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا بعدها يسيرون عادة إلى عنابرهم ليجمعوا معدات طيرانهم، الرحلة تأخذهم عشر دقائق، معظم الطيارين يقضون عدة دقائق أكثر في التواليت قبل الذهاب إلى خطوط الطيران، وصلوا الساعة الثامنة صباحًا بداية اليوم الرسمي وعندها تبدأ الطواقم الأرضية بدحرجة الطائرات من العنابر لتتزود بالوقود والسلاح للدقائق الخمس عشرة التالية تكون الطائرات قد أحيطت بشاحنات الوقود وشاحنات الذخيرة.

تفاصيل مشابهة لرحلة العودة كانت قد أعدت لحركة ضباط الصف في قيادة القاهرة، الضابط المصري يحتاج إلى ٣٠ دقيقة ليصل إلى العمل من بيته في إحدى الضواحي، المخططون الاستراتيجيون لا

يكونون غالبًا على مكاتبهم قبل الثامنة والربع صباحًا، عادة يقضون عشر دقائق يجلسون لاحتساء القهوة وفي تبادل الأحاديث، ضابط الصف العادي لا يبدأ بشكل صحيح في دراسة الإشارات الليلية من قواعد المقاتلات حتى الساعة الثامنة والنصف صباحًا تقريبًا.

مائير أميت مدير عام الموساد أعلم قائد سلاح الجو الإسرائيلي أن الوقت الذي يجب أن تنطلق فيه الطائرات وتكون فوق أهدافها من الساعة الثامنة إلى الثامنة والنصف صباحًا، في هذه الدقائق الثلاثين سوف يكون بالإمكان طحن قواعد العدو مع العلم بأن قيادة القاهرة العليا سوف تكون بدون موظفيها الرئيسيين لتقوم بتوجيه القتال الدفاعي.

في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ ضرب سلاح الجو الإسرائيلي الساعة الثامنة ودقيقة واحدة صباحًا بالضبط بأثر قاتل متسللاً على انخفاض ليقصف ويعاقب بشكل جيد وخلال لحظات تحولت السماء إلى اللون الأسود والأحمر، بتصاعد اللهب من شاحنات الوقود وانفجارات الذخائر والطائرات، وتم حسم الحرب لصالح إسرائيل خلال الدقائق الثلاثين الأولى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخابرات العربية كانت تركز اهتمامها على حماية النظام من أبناء الشعب العربي، دون الالتفات إلى الاختراقات الإسرائيلية لقيادتها، فكان جل اهتمام مخابراتنا في البلاد العربية التركيز على حماية النظام بالتركيز على الرئيس أو الملك

وملاحقة من تحوم حولهم الشبهات بالاعتداء على النظام أو العسكريين الذين يمكن أن يخططوا لانقلابات عسكرية ضد النظام، لهذا تركت الأبواب مشرعة أمام الاستخبارات الإسرائيلية للعمل بهدوء، الأمر الذي أدى بالتالي إلى اختراق كل المؤسسات العسكرية والمدنية، وفي مصر وصل الاختراق إلى رئاسة الجمهورية حيث تمكنت إسرائيل من زرع الجاسوس الإسرائيلي الكبير "باروخ نادل" بانتحاله اسمًا مستعارًا كان "انورين التركي"، ليصل إلى منصب المستشار الخاص للرئيس جمال عبد الناصر للشؤون العسكرية في مصر، ويقضي في هذا المنصب الحساس مرافقًا للرئيس لمدة أحد عشر عامًا انتهت صباح يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، وهو الجاسوس الذي أقام حفلاً للعسكريين والسياسيين في مصر في تلك الليلة، وبعد سكرهم وعربدتهم مع ما وفره لهم من المومسات أوصد عليهم باب الفيلا في حي الزمالك بالقاهرة، وغادر مصر تاركًا إياهم في سبات عميق إلى أن انتهت الحرب، أو قل إلى أن تمَّت هزيمة الأمة العربية واستيلاء إسرائيل على مناطق واسعة من الأراضي العربية الحيوية، والتي لا زالت تحتل معظمها حتى اليوم.

▪ الفصل الثاني عشر

حرب عام ١٩٦٧ وتغيير معالم الشرق الأوسط

تحدثنا في الفصول السابقة عن الدور الذي لعبه الموساد الإسرائيلي في توجيه الضربة القاضية لسلاح الجو المصري وبداية حرب عام ١٩٦٧، وفي هذا الفصل أجد من الضروري استعراض الأوضاع الإسرائيلية الداخلية التي سبقت حرب الأيام الستة كما يحلو للبعض تسميتها، وما كان يجرى داخل الكيان الصهيوني من استعدادات ومناقشات ومخاوف، واستعراض الأوضاع الإسرائيلية العسكرية والاقتصادية التي سبقت الحرب.

يقول المعلقون السياسيون والمحللون الإسرائيليون إن حرب الأيام الستة كانت نتيجة حتمية لذروة الأحداث التي بدأت قبل عدة سنوات قبل عام ١٩٦٧، وبالتحديد من بداية عام ١٩٦٠ حيث - كما ادعى الإسرائيليون - أن حركة فتح التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية قد بدأت بمهاجمة أهداف عسكرية ومدنية في إسرائيل وعلى الرغم من أنها لم تكن تعتبر الفلسطينيين قوة عدوانية، فقد نشبت الحرب عام ١٩٦٧، فكانت جولة جديدة من الصراع بين العرب والصهاينة، الكثيرون من الفدائيين الفلسطينيين كانوا يتسللون إلى داخل إسرائيل من الأراضي السورية، مما أدى إلى ازدياد الاحتكاكات على حدود

الكيان الصهيوني الشمالية، في السابع من نيسان/ أبريل ١٩٦٧ اشتبك الطيران الحربي الإسرائيلي مع تشكيل من القوات الجوية السورية، وكان ذلك ردًا على التسلل إلى إسرائيل من الأراضي السورية كما تدَّعي إسرائيل، مما أدى إلى إسقاط ست طائرات سورية، وصدرت على إثر ذلك تحذيرات وتهديدات لإسرائيل قبل ما يسمى يوم الاستقلال، وفي شهر أيار/ مايو من ذات العام كان الانطباع السائد بأن إسرائيل كانت تقترب من مهاجمة سوريا التي ترتبط مع مصر باتفاق دفاع مشترك، في منتصف شهر مايو/ أيار قرر المصريون التدخل لصالح سوريا وبدأوا في نشر قواتهم على طول برية سيناء.

الوصف المختصر لهذا التطور عبَّر عنه رئيس وزراء الكيان الصهيوني آنذاك "ليفي اشكول" في ١٦ أيار/ مايو ١٩٦٧، إذ جاء في تقرير له قوله: "في ضوء المعلومات والطلبات التي تصل إلى مصر من سوريا، فيما يخص النوايا الإسرائيلية باتخاذ إجراءات صارمة ضد سوريا، وفي ضوء الإعلانات الإسرائيلية والتحذيرات التي تلت ذلك، وفي ظل الوضع الصعب الذي وجدت مصر نفسها فيه بعد السابع من نيسان عام ١٩٦٧، قررت مصر أن لا تقعد مكتوفة الأيدي حيال الأوضاع القائمة، وفي حكم ليفي اشكول أن مصر كانت تنوي ردع إسرائيل عن إصدار تهديدات ضد سوريا، وكان التوتر وتأزم المواقف قد امتد إلى الجبهتين السورية والأردنية.

الأحداث التي أدت إلى الحرب، إضافة إلى النتائج، كانت قد جرى بحثها وتحليلها على نطاق واسع، ولكن لكي يدرك المرء لماذا نشبت تلك الحرب فليس من الضروري معرفة خلفياتها الدبلوماسية والعسكرية، فكل ما يحتاجه المرء هي المعرفة الحقيقية عن الإسرائيليين أنفسهم، في عام ١٩٦٦ كان الإسرائيليون يتعرضون إلى هزات عاطفية وسياسية ومعنوية عنيفة، إذ كان هناك أكثر من ٢,٣ مليون يهودي وثلاثمائة ألف عربي في البلاد، ومع بداية عام ١٩٦٦ بدأ الإسرائيليون يفقدون الثقة بأنفسهم، وسيطرت عليهم روح الكآبة، فكان الشك في كل مكان مما أدى إلى حالة يأس قوية بين الإسرائيليين، وتردد السؤال على ألسنة معظمهم: ماذا يفعل الناس؟ وقد بدا ذلك واضحًا من كاتب الأغاني "حاييم هيفر" بقوله: "ليس كل شيء يسير بشكل صحيح، وليست هناك نقطة من الحظ السعيد، كل شيء يدعو إلى الكآبة وكل واحد حزين، الأشياء لا تعمل جيدًا ولا أحد يعرف لماذا!".

تلك الفترة عاصرها تدهور اقتصادي مخيف في إسرائيل وهبوط حاد جدًا في الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، إضافة إلى الهجرة المعاكسة، حيث ترك عشرات الآلاف إسرائيل بشكل نهائي، الثقافة الاشكنازية الأوروبية في إسرائيل كانت مهددة بتدفق اليهود الشرقيين، المهاجرين من البلاد العربية مما أدى إلى توتر اجتماعي مصحوبًا بالغضب، هذه التطورات عمومًا أدت إلى بروز أزمات

عميقة ومؤلمة تتعلق بالهوية اليهودية، ويبدو أن وجهة نظر الصهيونية كانت تسير في اتجاهها البعيد عن تلك التطورات، حيث قال أحد زعماء حزب "المباي" الصهيوني "إننا شعب عاطفي" كثيرون استنتجوا أن المشروع الصهيوني قد فشل كما قالت إحدى الصحف العبرية آنذاك.

خلال الأشهر التي سبقت الحرب كان هناك شعور يسود الإسرائيليين، شعور واسع بأن معظم القيم الأساسية للدولة والتضحيات والوحدة الوطنية قد فقدت معانيها ولم يكن هناك ما يعوضها، وكان هذا الشعور من أساسيات المعتقدات اليهودية، وكان الناس يجادلون كثيرًا، ولم يكن ذلك الجدل سياسيًا بين اليمين واليسار كما هي العادة، ولكنه كان غالبًا امتحانًا سياسيًا للحلم الإسرائيلي ذاته، كثيرون شعروا أن المجتمع الإسرائيلي كان يتفتت تدريجيًا.

الأزمة التي سبقت حرب الأيام الستة جعلت الإسرائيليين مستسلمين تمامًا لمصيرهم المنتظر، وفي هذا قال وزير الزراعة الإسرائيلي "حاييم جفاتي" في مذكراته إنه يشعر بأن إسرائيل كانت على وشك الاختبار الصعب كما لم تكن منذ حرب الاستقلال عام ١٩٤٨، "كل واحد يفهم أن هذه معركة للموت"، وفي مكتب رئيس الوزراء سمع "حاييم جفاتي" أن الاتحاد السوفيتي فيما يبدو قرر أن يذهب إلى نهاية الطريق وأنه لم يعد مترددًا في تدمير إسرائيل، ولكن لم يكن

هنـاك أي أسـاس لتقريـر كهـذا فـي الحقيقـة، إسـرائيل لـم تتـرك الإشاعات تمر دون ملاحظة، الجنود العائدون إلى منـازلهم فـي عطلـة نهاية الأسبوع تحدثوا عن تدهور المعنويات في الجيش، وقالوا بـإن هناك شائعات أن إسرائيل غير مستعدة للحرب، ولا توجد ثقـة بـأنهم قـادرون علـى خـوض حـرب مـع عدوهم، وقد كتب الـوزير "حـاييم جفاتي" أن الخوف ليس له قاعدة في الحقيقة ولكن يبدو أن الحرب أصبحت حتميـة، وبمـا أن جفـاتي شـارك فـي اجتمـاع مجلس وزراء إسـرائيل حيـث قـاطع رئـيس أركـان الجـيش الإسـرائيلي المجتمعـين "اسحق رابين" قائلاً: إن الطائرات المصرية الأربعة السوفيتية الصنع قد اخترقت المجـال الجـوي الإسرائيلي وتمكنت طائرتـان منهـا فيمـا يبدو تصوير مفاعل ديمونة النووي.

الاستعدادات للحرب ذكَّرت الكثير من الإسرائيليين بالمحرقة النازيـة "فكيف يكون ذلك؟"، طرحت هذا السؤال امرأة يهوديـة فـي رسـالة منها إلى زميل دراسـة لهـا سـابق يعيش فـي مدينـة لـوس انجيلـوس الأمريكية، وأعادت إلى الأذهان أنه لم تمض خمس وعشرون سنة علـى الحرب العالميـة الثانيـة، وأن المسألة تحدث مرة ثانيـة؟ وفـي رسالة إلى الرئيس الأمريكي "ليندن جونسون" كتب افرايم إيفرون الدبلوماسي الإسرائيلي فـي واشنطن، الـذي جـاء إلـى البيت الأبيض يطلـب دعـم الولايـات المتحـدة لكيانـه، والـدموع تـسيل علـى وجنتيـه (طبعًا كانت دموع التماسيح).

عند نشوب الحرب قضى الوزير "حاييم جفاتي" الساعات الأولى في ملجأ مع جيرانه، وفي اليوم التالي كان كل شيء قد انتهى، فهو يقول في هذا: "كان أعظم يوم في حياتنا وربما كان أعظم يوم في تاريخ الشعب اليهودي، معظم الإسرائيليين اعتقدوا أن جيش الدفاع الإسرائيلي قد أنقذهم من الدمار، كثيرون وصفوا النصر على العرب بأنه "المعجزة الإلهية" وكأنهم قفزوا من الجحيم، وأنهم ولدوا من جديد في قمة الخلاص، كتبت صحيفة يديعوت احرنوت في الافتتاحية: "لقد كانت يدّ الله مع شعبه إسرائيل، إن مشاعر يوم القيامة قد اختفت وكان التاريخ يبدأ مرة أخرى".

قبل بضعة أشهر من الحرب كان موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلي في زيارة لفيتنام وعند عودته من الزيارة قال "الأمريكيون يكسبون كل شيء في فيتنام، ما عدا الحرب"، فليس بعيدًا بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ كان يمكن أن يقال العكس عن الإسرائيليين، إنجازاتهم الوحيدة كانت بطبيعة الحال كسب الحرب، لا شيء تم اكتسابه باحتلال المناطق التي سقطت بأيدي الإسرائيليين في الحرب، والتي انزلقت بعيدًا بسبب الخوف الذي نجم عن سكرات النصر. عواطف الإسرائيليين قادتهم إلى العمل ضد مصالحهم، نوع من السلوك ضد المصلحة الوطنية يرجع الفضل فيه غالبًا للعرب، مما دفع السفير البريطاني أن يكتب بإعجاب كبير إلى رؤساءه في لندن: "الشيء الحسن أنه كيف يستطيع الإسرائيليون أن يتصرفوا بطريقة أفضل

كثيرًا من العرب"، لم يكن هناك في الحقيقة أي تبرير للخوف الذي سيطر على الإسرائيليين قبل الحرب، ولا من أجل الشعور بالنشوة التي سادت بعد الحرب، والتي تجعل قصة إسرائيل في عام ١٩٦٧ صعبة الفهم.

لقد بدأت مرحلة الركود الاقتصادي الأولى في إسرائيل مع بداية عام ١٩٦٤ وفي عام ١٩٦٦ وصل الاقتصاد الإسرائيلي إلى أقصى درجاته ركودًا، حيث عكس الوضع الاقتصادي في انتقاليته من مرحلة المتطلبات الملحة إلى مرحلة الشلل، خصوصًا في مجال البطالة، ولم يكن هذا التحول قد جاء مفاجئا حيث كانت جذوره تنمو عميقة قبل العام ١٩٦٤، ولكن الحملة الانتخابية كانت قد أخفته نوعًا قبل الانتخابات، كان آلاف الإسرائيليين يحصلون على ترقيات في وظائفهم ومرتباتهم الشهرية، والتي كان معظمها يتآكل في موجة ارتفاع الأسعار المحمومة التي واجهتها البلاد بعد ذلك مباشرة، لقد كان معدل إنفاق العائلة حوالي ٧٣٥ ليرة إسرائيلية شهريًا، وفي عام ١٩٦٦ ارتفع معدل الإنفاق الشهري للعائلة اليهودية إلى ٨٢٠ ليرة إسرائيلية.

لهذه الأسباب كان لابد من الدخول في حرب مع العرب تكون نتائجها توسعية بقدر المستطاع، من أجل انفراج الأزمات الاقتصادية الحادة التي تواجهها إسرائيل، فكانت حرب الأيام الستة وكانت الهزيمة العربية الثانية في الصراع القائم بين العرب واليهود في فلسطين،

وعلّق الكثير من المحللين السياسيين الغربيين بأن تلك الحرب قد غيرت وجه الشرق الأوسط، ونحن مع هذا الرأي بغض النظر عن التسميات التي أطلقها العرب على تلك الحرب، (النكسة – الجولة الثانية في الحرب العربية الإسرائيلية – الكبوة -.. إلى أخر هذه المسميات)، ولكن علينا أن نعترف بأنها كانت هزيمة عربية نكراء بكل المقاييس، لا زلنا حتى كتابة هذه السطور نعاني من آثارها وفواجعها، وفعلاً لو لم تكن تلك الحرب لما سقط العراق العربي في أيادي الأمريكيين والصهاينة! ولو لم تكن تلك الحرب اللعينة لم انجر الفلسطينيون لتوقيع اتفاقات اوسلو التعيسة، ولو لم تكن تلك الحرب لكان العالم العربي في أوضاع أفضل من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولما كانت غزة قد حوصرت وجوِّع شعبها الفلسطيني، ولكن كانت تلك الحرب قد غرست بذور الوعي عند أبناء الأمة العربية.

علينا ألا نقلد النعام في سلوكنا السياسي إزاء تلك الهزيمة الكبرى، إذ أن من واجبنا أن نبين وندون في سجلات التاريخ ما أصابنا من ويلات وكوارث لتطّلع عليها الأجيال القادمة من أمتنا، فهل يجوز أن نستمر في الكذب والخداع على أجيالنا في تسجيل هزائمنا العسكرية والنفسية على أنها انتصارات، كما حدث في حرب عام ١٩٦٧؟ علينا أن نعترف بهزائمنا وأن نعترف بتقصيرنا في فهم خبث ومكر عدونا، باعتباره عدوًا فريدًا في نوعه تقوم حياته على الفساد في الأرض والدسائس والمؤامرات.

في الباب الخامس في هذا الكتاب سوف استعرض الأوضاع التي سبقت وتلت حرب الأيام الستة، وما كان يجرى على المستويين السياسي والشعبي في إسرائيل، وكذلك على المستوى الرسمي في ما سمي دول الطوق، وقد رأينا أن نفرد بابًا خاصًا بهذا الموضوع حيث أنه شائك وطويل إضافة إلى تعقيداته.

في نهاية الحرب أصدرت الأمم المتحدة القرار ٢٤٢، وَدَعت إلى مفاوضات سلام دائم بين الطرفين وإلى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧، إلا أن إسرائيل لم تستجب لهذا القرار ورفضت الانسحاب من الأراضي العربية حيث كانت أهدافها من الحرب حل أزماتها الاقتصادية بالتوسع في البلاد العربية.

بعد الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ بدأت الجماعات المتدينة في إسرائيل بالتحريض على ضم الضفة الغربية ومرتفعات الجولان واستيطانها، غير أن عددًا من الوزراء الإسرائيليين من بينهم بنحاس ولكمان أران، إضافة إلى حزب العمل وياكوف شمشون شابيرا من الحزب الوطني الديني، ابدوا مخاوفهم إزاء المشكلات الديموغرافية التي من شأنها أن تنشأ بسبب ضم هؤلاء العرب، وأشار شابيرا أيضًا إلى أن ضم الضفة الغربية يُعطي مصداقية للمزاعم القائلة بإن إسرائيل ليست إلا مشروعًا استعماريًا، وكان مناحيم بيغن وإيغال ألون يؤيدان عدم الضم، واقترح موشيه ديان منح حكم ذاتي لعرب الضفة لكن مناحيم بيغن عارض هذه الخطة، رغم أنه مال إليها في وقت

لاحق، كان بيغن يرى أن من الممكن استقدام أعداد كبيرة من اليهود إلى إسرائيل للاستيطان في المناطق، مع منح العرب حق الاختيار بين الرحيل أو أن يكونوا مواطنين في دولة إسرائيل.

أما الموساد الإسرائيلي فقد اقترح إقامة دولة فلسطينية تحت الحماية الإسرائيلية، وذلك ورد في تقرير مؤرخ في ١٤ حزيران ١٩٦٧ لكن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولاً، وتقول بعض المصادر أن موشيه ديان استقبل في صيف ١٩٦٧ وفدًا من الأعيان الفلسطينيين، واقترح عليهم حكمًا ذاتيًا في الضفة الغربية ولكن الوفد رفض هذا الاقتراح، وبحلول شهر تموز عام ١٩٦٧ طرح إيغال ألون خطته المعروفة باسم "خطة ألون" التي دعت إلى احتفاظ إسرائيل بأجزاء كبيرة من الضفة الغربية في أي تسوية سلمية، وذلك لأسباب استراتيجية لإسرائيل، فجرى بناء عدد متزايد من المستوطنات، مع اتضاح أن الدول العربية لن تقدم على مفاوضة مع إسرائيل، ثم جاءت قمة الخرطوم في آب وأيلول عام ١٩٦٧، فكانت نقطة انعطاف حاسمة إذ بدا أنها تغلق الباب أمام إسرائيل لاحتمال أي تفاوض أو الاعتراف بها بأي شكل من الأشكال، لكن لعل قرارات قمة الخرطوم ما كانت عقبة كأداء في الوصول إلى السلام، ففي عام ١٩٧٠ قيل إن الملك حسين عرض السلام مقابل انسحاب إسرائيلي من الضفة الغربية، وعودة الأماكن المقدسة، غير أن إسرائيل رفضت هذا الاقتراح رفضًا قاطعًا.

منذ أن جاء حزب الليكود المعارض للحكم في إسرائيل عام ١٩٧٧ إلا وأصبح توسيع المستوطنات سياسة رسمية إسرائيلية، وظل الليكود في الحكم إلى أن أبرم اتفاقيات اوسلو وبحلول عام ٢٠٠٣ بلغ عدد الإسرائيليين المستوطنين في الضفة الغربية وغزة ٢٢٠,٠٠٠ مستوطن، إضافة إلى ٢٠٠,٠٠٠ استوطنوا في منطقة القدس ومحيطها الذي احتلته إسرائيل عام ١٩٦٧، كما أن ١٥٠٠٠ مستوطن يهودي سكنوا في مرتفعات الجولان السورية التي استولت عليها إسرائيل من سورية.

- حرب الاستنزاف:

بعد حرب الأيام الستة؛ شن الرئيس المصري جمال عبد الناصر حرب استنزاف في منطقة قناة السويس، وفي إسرائيل توفي رئيس الوزراء ليفي اشكول وحلت محله المتشددة غولدا مائير، جرت حرب في مواقع ثابتة بين الجانبين، راحت تزداد دموية، وتحت ضغط الولايات المتحدة جرى توقيع اتفاق ثاني لوقف إطلاق النار في آب ١٩٧٠، أعلن فيه الجانبان رسميًا قبولهما قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، وتوفي جمال عبد الناصر في نهاية سبتمبر من العام ١٩٧٠، وحل محلة الرئيس محمد أنور السادات الذي واصل التقلب بين عرض خطط السلام والتهديد بالحرب، وأعلن بأن يكون عام ١٩٧٢ عام الحسم، وكانت إسرائيل على قناعة بتفوقها العسكري ولم تفكر بأن مصر سوف تقوم بمهاجمتها إلا بعد أن تعيد بناء

جيشها، من هنا بدأ السبيل الأفضل وهو الانتظار ريثما تقبل الدول العربية الشروط الإسرائيلية.

- حرب أكتوبر (حرب يوم الغفران بالتسمية الإسرائيلية) :

في تشرين الأول عام ١٩٧٣ شنَّت مصر وسورية حربًا جديدة على إسرائيل، اجتاز المصريون قناة السويس بعيد ظهر يوم السادس من تشرين الأول (يوم الغفران)، وهو أقدس أيام السنة لدى اليهود، وكانت الحكومة الإسرائيلية قد تجاهلت إنذارات استخباراتية متكررة لأنها كانت مقتنعة بأن أسلحة إسرائيل تمثل رادعًا كافيًا في وجه أي مهاجم، لقد أعلن السادات مرتين عن نيته لتوجيه ضربة لإسرائيل من قبل اعتزامه شن الحرب، لكن شيئًا لم يحدث.

فوجئ الإسرائيليون من أكثر من ناحية واحدة تدفق أعداد كبيرة من القوات لمصرية عبر قناة السويس دون مقاومة، وبدأت في إقامة رأس جسر لها، وكان الجيش الإسرائيلي قد أهمل مهام التدريب والصيانة الرئيسية اعتمادًا على ضعف الجيوش العربية، والمصرية بالذات، وتبين لإسرائيل عندما قامت بحشد قواتها أن نقصًا في المعدات وأن جاهزية سلاح الدبابات منخفضة، أما سلسلة المخافر المبنية لتكون مراصد على امتداد قناة السويس (خط بارليف) استخدمت بدلاً من ذلك لتكون تحصينات تمنع تقدم المصريين إلى أطول وقت ممكن، كانت إسرائيل تراهن بل تعتمد على تفوق سلاحها الجوي لجعل الموازين في ساحات القتال تميل إلى صالحها،

لكن سلاح الجو الإسرائيلي غدا عديم الجدوى بسبب فعالية صواريخ سام الروسية.

في هذه الأثناء تركت إسرائيل أقل من ٢٠٠ دبابة لحراسة مرتفعات الجولان في مواجهة قوات سوريا، وحولت دبابتها من الجولان إلى المعركة في جنوب البلاد وسيناء، أما عبور المصريين قناة السويس أدى أيضًا إلى استعادة قطاعًا من شبة جزيرة سيناء، وتمكنت سوريا من الاستيلاء على جزء من الجولان، إلا أن إسرائيل تمكنت من استرجاعه فيما بعد، وفي جبهة القناة تمكن الجيش الإسرائيلي من محاصرة الجيش الثالث المصري في قناة السويس (الدفرسوار)، خسرت فيها إسرائيل كما تدَّعي ٢٧٠٠ جندي إسرائيلي، وهو العدد الأكبر في أي حرب خاضتها مع العرب، كما أدت نتائج الحرب إلى استقالة غولدا مائير من رئاسة الوزراء مفسحة الطريق أمام إسحق رابين الذي كان سفير إسرائيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكان قبل ذلك رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي.

في أعقاب حرب عام ١٩٦٧ أعلنت الدول العربية وبقيادة المملكة العربية السعودية حظرًا على إمدادات النفط إلى الولايات المتحدة وهولندا خاصة، بسبب دعمهما لإسرائيل في عدوانها عام ١٩٦٧، وإلى تخفيض إنتاج النفط بنحو ٣٤٠ مليون برميل يوميًا، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار النفط من ٣ دولارات للبرميل إلى ١١ دولار، بسبب الاندفاع إلى تخزين النفط إضافة إلى النقص الفعلي،

وكان النفط المباع إلى البلدان الأوروبية يأخذ طريقه في النهاية إلى الولايات المتحدة وهولندا، لكن خطوط الإمدادات صارت طويلة وصارت الأسعار تزداد من يوم لآخر. ولعل هذا خلق حافزًا كما يقول المراقبون السياسيون للتحركات الدبلوماسية الأوروبية التي سعت لاسترضاء العرب، ولعل ذلك كان سببًا في دعوة ياسر عرفات إلى مخاطبة الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومنح منظمة التحرير الفلسطينية مقعدًا دائمًا بصفة مراقب في الأمم المتحدة إلى اتخاذ قرار بأن "الصهيونية شكل من أشكال العنصرية في عام ١٩٧٥".

والحقيقة أن ارتفاع أسعار النفط كانت لأسباب أخرى بعيدة كل البعد عن الحظر والحرب، لا زالت أسرارها غامضة حتى الآن، غير أن هناك اعتقادًا بأن الاحتكارات النفطية الأمريكية قامت بإرسال وفود إلى الدول النفطية، بدأت بزيارة نيجيريا باعتبار نيجيريا تُصدِّر الزيت الخام الخفيف، والذي يسمى بالإنكليزية Light crude Oil، وهو نوع النفط الذي تتحدد في ضوء سعره أسعار الأنواع الأخرى من النفط الخام، تمامًا مثل الذهب الذي تتحدد أسعار العملات العالمية على ضوء أسعاره، وكانت نيجيريا مدانة للبنوك العالمية بحوالي ٥٠ مليون دولار في ذلك الوقت، وغير قادرة على تسديد فوائد ذلك الدين، اقترح الوفد على الرئيس النيجيري إعفاء بلاده من الدين البالغ ٥٠ مليونًا وإعطائه ٥٠ مليونًا إضافية بشرط أن يرفع سعر النفط الخفيف إلى رقم خيالي بالمقارنة مع الأسعار التي كانت سائدة، فوافقت نيجيريا على ذلك الاقتراح، وبالمثل واصل الوفد

زياراته للدول النفطية العربية، ووقعوا اتفاقات سرية معها لرفع أسعار النفط، وافقت معظم الدول العربية على عرض الاحتكارات النفطية العالمية، كما وقّعوا اتفاقيات حول المبالغ الضخمة التي ستترتب عن الارتفاعات، والتي ستؤول للدول النفطية نتيجة الارتفاع الحاد بالأسعار، على أن تودع تلك الأموال في البنوك العالمية مقابل شهادات إيداع لمدة ٣٠ عامًا، ويسمح للدول النفطية بموجب تلك الاتفاقيات سحب الفوائد فقط، وهي كافية للإنفاق على مشاريع الدول النفطية بل تزيد عن احتياجاتها.

وكانت الخطة الصهيونية تقضي بأن تودع الأموال في البنوك العالمية التي تملكها المنظمة الصهيونية لمدة ثلاثين عامًا دون السحب منها، وأن تقوم البنوك العالمية بتأسيس بنوك محلية تسمى Holding Banks، تستثمر الأموال النفطية فيها، مع ترتيب منح قروض لدول العالم الثالث بتسهيلات كبيرة، مع الإيحاء لتلك الدول بأن تنفق تلك الأموال في مشاريع لا فائدة منها، والصرف على رؤساء تلك الدول واحتفالاتهم وأعيادهم الشخصية، ومد طرق محلية لا يستفاد منها، وعند الاقتراب من الثلاثين عامًا المتفق عليها يعمل الإعلام الصهيوني على الضرب على وتر "ديون العالم الثالث" وعدم قدرة تلك الدول على تسديد الفوائد، فكيف لها أن تسدد المبالغ الرئيسية المدانة بها، وهنا برزت مشكلة ما يسمى ديون العالم الثالث، وكان مخططًا أن تبدأ تلك البنوك المحلية (الهولدنغ بانكس) بإعلان إفلاسها، وإعلان الإفلاس في أمريكا يحل البنك من التزاماته

وليس هناك قانون جزاء للإفلاس، ولا عقوبات على الجهة المعلن إفلاسها في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هذه الحالة تقول البنوك العالمية للعرب لقد استثمرنا أموالكم في بنوك محلية وقد أفلست هذه البنوك ولا نستطيع عمل أي شيء لكم، وباي باي حبايبنا أيها العرب.

تنبَّه إلى هذه المؤامرة المغفور له جلالة الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية بعد أن كان من ضمن الموقعين على تلك الاتفاقيات الخبيثة، وقد نبهه صديق له إنكليزي يدعى "جوناثان ماي"، وكان من أكبر خبراء المال في العالم، تحادث مع الملك فيصل وأبلغه أن بلاده وقعت في مصيدة صهيونية كبرى، فاستدعاه الملك فيصل إلى الرياض للتباحث معه في إيجاد مخرج من المأزق، وتم الاتفاق فيما بينهما على تأسيس بنك فدرالي عربي يصدر عملة خليجية موحدة يباع النفط بتلك العملة، فأوكل الملك فيصل إلى جوناثان ماي هذه المهمة وطلب منه الإسراع في تأسيس البنك والعملة الخليجية، وعند عودة جوناثان ماي إلى بريطانيا لاحقته الحركة الصهيونية لتصفيته جسديًا، إلا أنه فر من هناك إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فوجد في انتظاره في مطار نيويورك من يقتاده إلى زنزانته في سجن منسوتا دون توجيه تهمة له، وبقي في السجن مع حرمانه من الاتصال مع العالم خارج السجن ولا يُعرف مصيره بعد ذلك، ويعتقد أنه قضى نحبه في السجن ودُفن سرًا، وفي الناحية الثانية تم تصفية صاحب فكرة العملة الخليجية الموحدة وبيع النفط بها، تمَّت تصفيته

على أيدي أحد أفراد عائلته وأشاعوا أنه قتل لأنه قال سوف أصلي في القدس، وهذه مسألة بعيدة كل البعد عن الحقيقة التي ظلت غامضة حول مقتله، كما أن بعض الأمراء في منطقة الخليج قد شارك في التآمر مع الأمريكيين على تصفية الملك فيصل رحمه الله، وفي هذه المرحلة بالذات لا نريد كشف المزيد عن تلك المؤامرة ولا عن تفاصيلها، لأن تلك التفاصيل تشمل بعض الزعماء العرب في دول النفط الخليجية، برغم أنهم لم يعودوا على قيد الحياة الآن فقد دفنت أسرار تلك المؤامرة على حياة الملك فيصل معهم.

- السلام مع مصر:

أثمرت الدبلوماسية المكوكية التي اعتمدها وزير الخارجية الأمريكي (عرَّاب الصهيونية) هنري كيسنجر بعد ذلك؛ انسحابات إسرائيلية جزئية من سيناء، بموجب شروط أقل من تلك التي كان الحصول عليها ممكنًا قبل الحرب، وكان زعيم المعارضة في إسرائيل "مناحيم بيغن" مُصِرًّا على معارضته أي شكل من أشكال الانسحاب، لكن مصر بزعامة أنور السادات وإسرائيل بزعامة مناحيم بيغن وقعتا عام ١٩٧٨ على اتفاقيات كامب ديفيد، التي كانت إطارًا إلى معاهدة السلام عام ١٩٧٩، ثم انسحبت إسرائيل من شبة جزيرة سيناء عام ١٩٨٢ وفق شروط أملتها إسرائيل على مصر وأهمها تزويد إسرائيل بالغاز الطبيعي بأسعار متدنية وأن تكون سيناء منطقة منزوعة السلاح.

▪ الفصل الثالث عشر

المؤثرات التي طرأت على النزاع الإسرائيلي الفلسطيني

في أعقاب حرب الخليج نشط الضغط الأمريكي المتواصل، وتفكك الاتحاد السوفيتي والميول في الرأي العام العالمي، أدت هذه العوامل إلى الدعوة إلى المفاوضات الرامية إلى تسوية للقضية الفلسطينية المزمنة، وفي الأعوام ١٩٩٣ و١٩٩٥، وقعت منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل إعلان أوسلو للمبادئ، واتفاقية أوسلو المرحلية، مما أدى إلى السماح بإقامة سلطة فلسطينية يفترض أن تكون كيانًا مؤقتًا يملك صلاحية التفاوض مع إسرائيل وحكم المناطق التي قد تنسحب منها إسرائيل في كل من الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة.

هذه الاتفاقيات التي وقعت بين ياسر عرفات وإسرائيل والتي عرفت باتفاقات أوسلو أدَّت إلى سماح إسرائيل بدخول ياسر عرفات وأعضاء من حركته الفتحاوية إلى فلسطين وأقام عرفات في غزة كما أدت إلي إيجاد شرخ في الوضع الفلسطيني، حيث أن حركة فتح وهي التي تسيطر على منظمة التحرير انفردت في التوقيع على اتفاقية أوسلو، مما جعل الفصائل الفلسطينية الأخرى التي تشكل منظمة

التحرير الفلسطينية لا تقبل بتلك الاتفاقية الإسرائيلية الفتحاوية، وكانت إسرائيل تهدف من توقيع تلك الاتفاقية إلى وقف أعمال العنف في الأراضي المحتلة خصوصًا الانتفاضة الفلسطينية التي لم تكن قادرة على وقفها، وقد رأت أن حركة فتح تستطيع وقف الانتفاضة الفلسطينية وأن تمنع أعمال العنف ضد إسرائيل. استطاعت حركة فتح فعلاً أن توقف الانتفاضة الفلسطينية، غير أنها لم تتمكن من وقف أعمال العنف ضد الاحتلال، برغم أن قوات الاحتلال قامت بانسحابات جزئية من داخل المدن الفلسطينية وبقيت تحاصر تلك المدن من خارجها، أما المساحة التي بقيت تحت إدارة حركة فتح فقد كانت حوالي ٨% من الأرض الفلسطينية.

استمرت أعمال العنف ضد الاحتلال الإسرائيلي برغم ما فعله عرفات وحركته للسيطرة على الموقف ووقف تلك الأعمال بموجب الاتفاقية الموقعة بينه وبين إسرائيل، وكان عرفات قد لجأ إلى أسلوب الخطابة الشعبية في الفلسطينيين، على غرار خطابات الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر ظنًّا منه أن ذلك الأسلوب يجعل الجماهير الفلسطينية تلتف حوله، فقد بدأ في تقليد شخصية عبد الناصر وحتى أسلوبه في الخطابة العشوائية الخالية من المنطق ومن قواعد اللغة العربية، وقد فاته أن خطابات الرئيس عبد الناصر الملهبة جاءت في وقت كانت الشعوب العربية تتطلع فيه إلى مخلص يخلصها من الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية عام ١٩٤٨ في فلسطين، فعبد الناصر

الذي جاء نتيجة انقلاب عسكري في مصر، وألغى الملكية وأعلن مصر جمهورية جعله رمزًا سياسيًا، ليس للشعب العربي في مصر فحسب بل لكافة الشعوب العربية، وبقى يتربع على هذا العرش دون منازع إلى عام ١٩٦٧ حيث حلت الهزيمة الكبرى بالأمة العربية ولم يعد عبد الناصر ذلك الرمز المقدس لدى الكثيرين في مصر وفي البلدان العربية الأخرى، لهذا لم يعد أسلوب الخطابة الشعبية ملفتًا للأنظار كما كان في الفترة التي سبقت عام ١٩٦٧، ولم يتمكن عرفات من تقمص شخصية عبد الناصر على الإطلاق برغم محاولاته الجادة.

لهذا استمرت أعمال المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي، وأصبح الشعب الفلسطيني يقاتل على جبهتين، الجبهة الإسرائيلية من جهة ويقاوم السياسة القمعية والتعسفية التي استعملتها السلطة الفلسطينية ضد الشعب الفلسطيني في الداخل من جهة أخرى، وقد بلغت إجراءات السلطة إلى درجة أن السجون الفلسطينية امتلأت بالشباب، وفي منطقة غزة اشتد الخلاف بين السلطة الفلسطينية وبين فصائل المقاومة وفي مقدمتها حركة حماس الإسلامية، أدت بالتالي بياسر عرفات إلى ترك غزة والإقامة في مبنى مقاطعة رام الله، وبعدها فرضت إسرائيل على عرفات الإقامة الجبرية في مبنى المقاطعة في رام الله وكانت طريقة لم يسبق أن استعملت من قبل، مما جعل الكثير من الفلسطينيين يعتقدون أن الرئيس عرفات رهن الاعتقال الإسرائيلي، وبقي عرفات عبئًا على إسرائيل إلى أن تخلصت

منه بدس السم له في الطعام وانتهت أسطورة عرفات، واستبدل بشخصية كان واحدًا من مهندسي اتفاقية أوسلوا اللعينة وهو محمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية المنتهية ولايته منذ زمن بعيد ولكنه لا زال متمسكًا بالكرسي، وتقوم إسرائيل بحمايته وحماية سلطته من الشعب الفلسطيني في الداخل.

بتاريخ ٥ تشرين الثاني عام ١٩٩٥ اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين على يد متعصب يهودي اسمه إيغال عامير، وذلك أثناء مسيرة تدعو إلى السلام، ولما وجِّهت المحكمة سؤالاً لعامير لماذا قام باغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي أجاب بكل صراحة أن رابين كان يدعو للسلام مع العرب وأنه ينوي إعادة القدس الشرقية للفلسطينيين وإعادة مرتفعات الجولان السورية إلى السوريين، وهذا يعني أنه يعجل في حدوث حرب "الارمغادون" الوارد ذكرها في التوراة التي سوف تهزم فيها إسرائيل، وأضاف: "قمت بقتل رابين من أجل تأخير وقوع تلك الحرب اللعينة وتأجيل هزيمة إسرائيل".

حل محل إسحق رابين شمعون بيريز الذي أشرف على توقيع اتفاقية أوسلو، غير أن تزايد التفجيرات الاستشهادية التي قامت بها حركة حماس داخل الخط الأخضر أدى بالتالي إلى خسارة حكومة العمل برئاسة شمعون بيريز في الانتخابات، التي جرت في أيار ١٩٩٦ وتولى بنيامين نتنياهو من حزب الليكود رئاسة الوزارة الإسرائيلية

الذي كان من أشد معارضي أوسلو، وفور توليه السلطة في إسرائيل قام نتنياهو بمحاولة إتمام مشروع سمَّاه مشروعًا سياحيًا تحت الأرض في القدس، الأمر الذي أثار جدلاً واسعًا، وكان المشروع الإسرائيلي عبارة عن فتح بوابة تصل بين نفقين، وكان الهدف من ذلك أن هذه البوابة تُعرِّض أساسات المسجد الأقصى للخطر وهذا ما سبب عنفًا استمر عدة أيام، وكانت حصيلته إصابات كثيرة بين الفلسطينيين.

وبرغم معارضة نتنياهو لعملية أوسلو وقَّعت إسرائيل مع السلطة الفلسطينية في كانون الثاني ١٩٩٧ اتفاقية انتقالية بشأن مدينة الخليل، انسحب بموجبها الجيش الإسرائيلي من بعض أجزاء مدينة الخليل، وبقي خارج المدينة يحيط بها من كل جانب، كما بقي في جزء من المدينة يضم حوالي ٥٠٠ مستوطن يهودي يعيشون وسط المدينة الفلسطينية تحت الحماية الإسرائيلية، ثم نتجت عن مفاوضات "واي ريفر" في تشرين الأول ١٩٩٨ اتفاقيات نصت على مزيد من الانسحابات الإسرائيلية إلى جانب تجديد الالتزام الفلسطيني بمنع ما تسميه إسرائيل وحركة فتح الإرهاب الفلسطيني، ولكن أحكام هذه الاتفاقيات لم تطبق من قبل إسرائيل، حيث أن حركة فتح لم تتمكن من منع المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي كما أن قوات الاحتلال لم تنسحب من المناطق التي نصت عنها تلك الاتفاقيات، أي أنها كانت اتفاقات حبر على ورق، في أيار ١٩٩٩ خسر نتنياهو

الانتخابات فغادر منصبه وتولى رئاسة الوزراء رئيس حزب العمل "إيهود باراك"، وواصل باراك برامج الاستيطان لكنه تعهد بمواصلة المفاوضات السلمية بنشاط، حاول باراك في البداية تجديد المفاوضات مع سوريا، لكن الرئيس السوري حافظ الأسد رفض عرض قدم إليه من خلال الرئيس الأمريكي كلينتون، وكان من شأن هذا العرض أن تتنازل إسرائيل عن جزء من مرتفعات الجولان بدون أي منفذ على بحيرة طبريا. تحوَّل بعد ذلك اهتمام باراك نحو الفلسطينيين وأعلن أنه سوف ينفذ أحكام اتفاقات واي ريفر، بسحب القوات الإسرائيلية العسكرية المنصوص عنها في الاتفاقية وبدأت المفاوضات حول ما يسمى التسوية النهائية، عرضت إسرائيل إعادة قرية أبو ديس وهي إحدى ضواحي مدينة القدس لتكون عاصمة فلسطينية، غير أن الحكومة الإسرائيلية عادت وسحبت هذا العرض نظرًا لاندلاع الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى)، عام ٢٠٠٠ انتهت مفاوضات الحل النهائي في كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية إلى حالة استعصاء في تموز ٢٠٠٠، حيث أصر الفلسطينيون على حق اللاجئين في العودة إلى إسرائيل، واعتبرت إسرائيل أن هذا من شأنه إيجاد أغلبية عربية فيها، فأصروا على ضم أجزاء رئيسية من المناطق الفلسطينية وعلى الإبقاء على القسم الأكبر من المستوطنات، ولم يعرضوا إلا صيغة محدودة للدولة الفلسطينية، واعتبر الفلسطينيون أن العروض التي تم تقديمها في كامب ديفيد لا تتضمن

إلا كانتونات أو مناطق عزل (غيتو) تتشكل منها الدولة الفلسطينية، ولكن دينس روس المبعوث الأمريكي للسلام قدَّم في كتابه "السلام المفقود" الصادر عام ٢٠٠٤ خريطة يفترض أنها تعكس الاقتراح التوفيقي الذي طرحه الأمريكيون في كامب ديفيد.

انطلقت شرارة العنف في ٢٨ أيلول ٢٠٠٠ على أثر زيارة اريل شارون إلى جبل الهيكل في القدس ودخوله إلى الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى متحديًا إرادة الشعب الفلسطيني، وهذا الموقع اسمه الحرم الشريف في اللغة العربية ويضم المسجد الأقصى المقدس عند المسلمين، ودخول شارون إلى هذا الموقع الفلسطيني المقدس أسهم في إذكاء لهيب الاضطرابات، وعلى أثرها دعت الولايات المتحدة إلى مؤتمر قمة في شرم الشيخ في شهر تشرين الأول من أجل إنهاء حالة العنف التي سادت البلاد.

بات الوقت ضيقًا أمام المفاوضات مع مواجهة رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك انتخابات وشيكة في إسرائيل، ومع إتمام الرئيس الأمريكي فترة ولايته الرئاسية وفشل المفاوضات التي جرت في واشنطن في كانون الأول ٢٠٠٠ في الوصول إلى أي اتفاق، طرح الرئيس كلينتون مقترحات لردم الهوة بين الطرفين، وطلب موافقة الطرفين عليها بحلول ٢٧ كانون الأول عام ٢٠٠٠، وقام كثيرون بالتعتيم على النتائج لكن المفاوض الأمريكي الرئيسي "دينيس روس" كان واضحًا في كتابه (السلام المفقود)، والذي صدر عام

٢٠٠٤ وجاء في صفحة ٧٥٣ - ٧٥٥ الخلاصة التي قدمها روس أن اقتراح كلينتون منح الفلسطينيين نحو ٩٧% من أراضي الضفة الغربية إضافة إلى السيادة على مجالهم الجوي، أما اللاجئون الفلسطينيون لا يستطيعون العودة إلى إسرائيل دون موافقة إسرائيلية، على أن ترابط قوة دولية في وادي الأردن لمدة ست سنوات وتحل محل الجيش الإسرائيلي، وتكون المناطق المجاورة للقدس والحرم الشريف ضمن الدولة الفلسطينية.

اجتمعت الحكومة الإسرائيلية في ٢٧ كانون الأول ووافقت على اقتراحات كلينتون مع إبداء تحفظات حيالها، وصفها "روس" بأنها تحفظات ضمن الحدود المقبولة، وهنا أود أن أشير إلى أن إسرائيل منذ أقدم عصور التاريخ قد برعت في اتباع سياسة الذرائع (سياسة البرغماتية)، فعندما يجدوا أنفسهم محرجين في أي موضوع يوافقون عليه دون تردد ولكن يقاوموه عمليًا ولا يطبقوه على أرض الواقع، إنما تأتي موافقاتهم بسبب عدم إثارة الآخرين عليهم خاصة الرأي العام.

الفلسطينيون لم يقدموا إجابة في الموعد المحدد، ولم يأتِ الرد الفلسطيني أبدًا، وفي هذا يقول "دينيس روس" إنه قال لأبي العلاء (أحمد قريع) في ٢٩ كانون الأول: سجل كلماتي، ستنفض الولايات المتحدة يدها من الأمر، وسيكون ذلك في وقت لا يعود فيه باراك وامنون أو شلومو موجودين بل في وقت يصبح فيه شارون رئيسًا

للوزراء، سوف ينتخب شارون بكل تأكيد إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق وستنخفض الـ ٩٧% إلى ٤٠% وستخسرون فرصة إقامة عاصمتكم في القدس الشرقية، ولن يترك الجيش الإسرائيلي وادي الأردن وسيكون حق اللاجئين غير المقيد في العودة إلى دولتكم قد ذهب أدراج الرياح".

أجابه أبو العلاء: "أخشى أن يتطلب الأمر خمسين سنة أخرى لتسوية هذا الأمر".

وفي حفل عشاء أقيم في تشرين الثاني عام ٢٠٠٥ في ذكرى رحيل إسحق رابين قال الرئيس كلينتون: "إن الرئيس ياسر عرفات ارتكب خطيئة تاريخية جسيمة عندما رفض اقتراحاته وتسبب في انهيار عملية السلام"، إلا أنه في ١٣ تشرين الثاني قال وزير الإعلام الفلسطيني آنذاك (الدكتور نبيل شعث): "إن إسرائيل لا تريد أبدًا أن تصل إلى الحل النهائي خلال المرحلة الثانية من مفاوضات كامب ديفيد، وهذا ما أسكت الشائعات القائلة بإن إسرائيل عرضت على الفلسطينيين ٩٧% من الضفة الغربية و ١٠% من وادي الأردن، وأما كل ما قيل إن إسرائيل قدَّمت للفلسطينيين تنازلات كبيرة فهذا غير صحيح، وأكد شعث أن إسرائيل رفضت إعادة القدس إلى الفلسطينيين، بل هي فوق ذلك مُصرّة على ضم الكتل الاستيطانية إلى مدينة القدس، وأوضح بأن هذه النقطة هي ما أوصل مفاوضات كامب ديفيد الثانية إلى حالة استعصاء، وأن ما اقترحه رئيس

الوزراء الإسرائيلي الأسبق إيهود باراك لم يكن سوى إعطاء عرفات مقرًا رئاسيًا في القدس القديمة.

وفي مفاوضات ما يسمى بمفاوضات اللحظة الأخيرة التي جرت في طابا المصرية بين ٢٢ ــ ٢٧ كانون الثاني ٢٠٠١ برعاية أوروبية ومصرية، فشل الجانبان في التوصل إلى تسوية، ورغم اتفاق الجانبين على إعلان مشترك يقول إنهما اقتربا من الاتفاق اقترابًا لا سابق له، فإن عدم الاتفاق الملموس بشأن موضوع اللاجئين وخرائط الاستيطان النهائية ظل قائمًا، قطع باراك المفاوضات يوم ٢٨ كانون الثاني ٢٠٠١ وعلقها حتى ما بعد الانتخابات، وكان باراك يأمل التوصل إلى صفقة يستطيع تقديمها إلى الجمهور الإسرائيلي، ولكن أصابه الغضب وخيبة الأمل لعدم التوصل إليها، لقد انتهت المفاوضات لأن باراك الذي قيل إنه دفع العملية السلمية إلى الأمام خسر الانتخابات في بداية شهر شباط وحل محله رئيس الحكومة اليميني أرييل شارون.

لم يجر فعليًا خلال المفاوضات تقديم أي خرائط رسمية من الجانبين أو من قبل الجانبين، وبعد فشل المفاوضات أكد الفلسطينيون بأن إسرائيل لم تعرض عليهم إلا "معازل" في الضفة الغربية، ولم تنشر الحكومة الإسرائيلية أي خرائط، أما دينيس روس الذي ترأس الفريق الأمريكي المفاوض فقد لخص المقترحات التي قدمتها الولايات المتحدة وقال أيضًا كل من مجموعة غوش شالوم ومؤسسة السلام

في الشرق الأوسط بنشر خريطة لهذا العرض الذي قدمته حكومة باراك في طابا، وقد كانت مسألة اللاجئين أحد الأسئلة الرئيسية البارزة، وكان الرئيس كلينتون يظن أن المسألة لا تتعدى فوارق في الصياغة بين الطرحين الإسرائيلي والفلسطيني، ولقد دعت اقتراحاته الرامية إلى ردم الهوة إلى السماح للفلسطينيين بالعودة من الخارج إلى الدولة الفلسطينية ولا يكون بوسعهم أن يعودوا إلى إسرائيل إلا بموافقة الحكومة الإسرائيلية، لكن الاقتراح الفلسطيني في طابا دعا إلى عودة نهائية لجميع اللاجئين إلى إسرائيل، لكن هذا الاقتراح ما كان مقبولاً لدى الإسرائيليين، لأن من شأنه أن يخلق أغلبية عربية فيها، وأن يضع نهاية لممارسة اليهود حق تقرير المصير كما يقول الإسرائيليون.

تواصلت المقاومة الفلسطينية في عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ رغم محاولات لجنة ميتشل وغيرها استعادة الهدوء، وقد كانت الهجمات التي استهدفت مركز التجارة العالمية في الولايات المتحدة يوم ١١ أيلول ٢٠٠١ وبيلة مباشرة على النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، فمن جهة أولى حاولت البلدان العربية والإسلامية الاستفادة من الحاجة إلى تعاونها في الحرب على الإرهاب بُغية انتزاع تنازلات لصالح الفلسطينيين، ومن جهة ثانية، بدأ كثير من الأمريكيين في النظر إلى الأعمال الإرهابية في ضوء جديد عندما بدأ الربط بين منظمات مثل حماس وحزب الله اللبناني، وبين جماعة القاعدة بزعامة

أسامة بن لادن، وأما ما كان له أثر مؤذ متميز على الفلسطينيين هو التظاهرات التي خرجت تأييدًا لابن لادن والأدلة التي ربطت بين سفينة اعترضتها إسرائيل (اسمها كارين) كانت تحمل أسلحة مهربة وبين الدعم الإيراني المقدم إلى حركة حماس، تم اعتراض هذه السفينة يوم ٣ كانون الثاني ٢٠٠٢ وهو يوم وصول المبعوث الأمريكي انتوني زيني من أجل محاولة التوصل إلى تسوية، وعلى ضوء هذه الصورة بدا أن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي يمنحان إسرائيل مجالاً أوسع للتحرك ضد الفلسطينيين، فقامت إسرائيل بتنفيذ اقتحامات متزايدة في المناطق الفلسطينية وحاصرت الرئيس ياسر عرفات في المجمع الرئاسي في رام الله، غير أن الفلسطينيين قاموا بتصعيد هجماتهم ضد الجنود الإسرائيليين إضافة إلى تصعيد العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر في إسرائيل.

- اقتراحات السعودية السلمية وقرار الدولة الفلسطينية:

طرح ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز اقتراحًا بإنهاء حالة الحرب الطويلة بين العرب وإسرائيل، مقابل انسحاب الإسرائيليين من المناطق الفلسطينية ومقابل انسحابها من الجولان مع ترتيبات ملائمة فيما يخص القدس واللاجئين، وقد جرى تبني هذا الاقتراح بعد تعديله ليكون أكثر وضوحًا فيما يخص مسألة اللاجئين في اجتماع الجامعة العربية، وفي النهاية جرى إدخاله

ضمن خطة الطريق التي طرحتها اللجنة الرباعية، وفي ١٢ آذار ٢٠٠٢ اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار ١٣٩٧، الذي دعا الأطراف إلى وقف ما اسماه العنف من جديد وتطرق إلى ذكر خطة الأمير عبد الله للسلام، وكذلك دعا وللمرة الأولى منذ عام ١٩٤٧ إلى إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل.

■ الفصل الرابع عشر

عملية الجدار العنصري

استمرت العمليات الاستشهادية وردود الفعل الانتقامية الإسرائيلية تواصلت، أعلن ياسر عرفات وقف العنف عدة مرات لكن هذا لم يكن له تأثير ظاهر على اشتداد العمليات الاستشهادية والكمائن، أما الإسرائيليون فقد واصلوا من جانبهم سياستهم في اغتيال المطلوبين في المناطق الفلسطينية، وخلال الأسبوع الأخير من شهر آذار، أي حين كان الجنرال ريني على وشك الذهاب إلى الشرق الأوسط من جديد، كان الفلسطينيون ينفذون عملية استشهادية ناجحة كل يوم تقريبًا، إضافة إلى الكثير من الهجمات الأقل نجاحًا، أدى تفجير في فندق بارك في ناتانيا إلى مقتل ٢٧ شخصًا كانوا يحتفلون بأحد الأعياد الدينية اليهودية.

وردت إسرائيل بغارة ضخمة أسمتها (عملية الجدار الواقي)، قصدت من خلالها استئصال البنية التحتية للمقاومة، بما في ذلك إعادة احتلال رام الله ونابلس وجنين وطولكرم وبلدات أخرى، وزعمت إسرائيل أن ٥٠ شخصًا فقط قتلوا في مخيم جنين، وأن أكثرهم أعضاء في كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح، لكن

الفلسطينيين اتهموا إسرائيل بارتكاب مجزرة في مخيم جنين قتلوا فيها أكثر من ٥٠٠ شخص، وقد كررت هذه الاتهامات أكثر المصادر الإخبارية في أوروبا رغم تراجعها عنها فيما بعد، وقد قالت منظمات حقوق الإنسان التي دخلت مخيم جنين بعد الغزو الإسرائيلي إن فيه قدرًا كبيرًا من الدمار ومن المرجح أن يكون الجيش الإسرائيلي قد ارتكب فيه جرائم حرب من خلال منع وصول المساعدات الطبية، لكنها قالت إن عدد القتلى لم يتجاوز الخمسين وأن أكثر من نصفهم إرهابيين، وبهذا أكدت الرواية الإسرائيلية الكاذبة عن الأحداث.

خفت الهجمات الاستشهادية لكنها لم تتوقف، وخلال مجرى القتال ادعت إسرائيل أنها وضعت يدها على وثائق كثيرة تدل على أن ياسر عرفات كان قد وافق شخصيًا على تنظيم خلايا إرهابية، وكذلك على أن خزينة السلطة الفلسطينية وافقت على دفع أموال من أجل شراء أحزمة ناسفة يستخدمها الاستشهاديون، (نلاحظ أن إسرائيل تحاول في كل مناسبة وبعد كل عملية مقاومة، أن تقحم عرفات وسلطته فيها بينما هم بعيدون كل البعد عن تلك العمليات، بل على العكس كانوا يحاولون وقفها أو محاربتها)، واعتقل الإسرائيليون أو قتلوا كثيرًا من الأشخاص الذي شكت إسرائيل في تورطهم في النشاطات الاستشهادية، كما قام الجيش الإسرائيلي بإتلاف سجلات وأبنية وطرق وغير ذلك من البنية التحتية المدنية البريئة في

المصارف والمنظمات غير الحكومية، وغيرها من المنظمات التي من الواضح أنه لا علاقة لها بتلك العمليات.

وفي وقت لاحق من مجريات القتال تمكن الجيش الإسرائيلي من تحديد مكان وجود مروان البرغوتي الذي يقود "التنظيم" في فتح واعتقلته، وزعمت إسرائيل أن لديها أدلة على صلة البرغوتي بكثير من الأعمال الإرهابية وفي النهاية قدمته إلى المحكمة فتلقى خمسة أحكام بالسجن المؤبد بسبب التواطؤ على القتل، ذهب منتقدوا السياسة الإسرائيلية إلى أنه من غير الممكن إنهاء العنف بالوسائل العسكرية في غياب التقدم باتجاه الحل السلمي، لكن عدد الهجمات الاستشهادية الناجحة وتواترها راحا يتراجعان في أعقاب عملية الجدار الواقي، وذلك مع استخدام قوات الأمن الإسرائيلية المتزايد للمعلومات الاستخباراتية التي جمعتها خلال هذه العملية من أجل رصد الهجمات وإحباطها، لكن عدد محاولات شن تلك الهجمات لم يشهد تناقصًا كبيرًا.

وقبيل نهاية عملية الجدار الواقي وصل إلى المنطقة وزير الخارجية الأمريكي كولن باول، لمحاولة وقف العنف، فقد كان في حاجة إلى الهدوء في إسرائيل وفلسطين من أجل إتاحة المجال للولايات المتحدة لبناء تحالف ضد العراق، لكن مهمة باول لم تحقق شيئًا، إذ لم يتمكن من جعل الإسرائيليين ينسحبون انسحابًا كاملاً من المناطق التي احتلوها، ولم يتمكن من جعل الفلسطينيين يوافقون على وقف

إطلاق النار، وقد أدى الغضب الشعبي والمظاهرات في البلدان العربية لقيام إسرائيل بارتكاب المجازر إلى دفع الأمم المتحدة إلى التحرك، وجاء قرار الأمم المتحدة رقم ١٤٠٢ ينص على انسحاب إسرائيل الفوري، ومع مغادرة باول كان الجيش الإسرائيلي قد بدأ في الانسحاب من بعض البلدات، لكن ياسر عرفات كان لا يزال حبيس المقر الرئاسي في رام الله، وكان الإسرائيليون يحاصرون كنيسة المهد في بيت لحم، حيث التجأ إليها فلسطينيون مسلحون هربوا من الجيش الإسرائيلي، تبنى مجلس الأمن قرار ١٤٠٥ الداعي إلى تشكيل فريق تحقيق محايد وإرساله للتحقيق في المجازر التي ارتكبتها إسرائيل، واعترضت إسرائيل على تركيبة الفريق بعد أن كانت وافقت على التحقيق في البداية، لكنها عادت عن موافقتها ومنعت إجراء تحقيق، زاعمة أن تركيبة الفريق وإجراءات التحقيق غير منصفين بالنسبة لها، وقالت إن الأمم المتحدة تراجعت عن الاتفاقات الأولية بشأن هذا التحقيق، كانت معارضة التحقيق في إسرائيل مدفوعة بذكريات مؤتمر "دربان" الذي كما تقول، لم يمض عليه وقت طويل إضافة إلى قرار الأمم المتحدة الذي ينص على أن الصهيونية أحد أشكال العنصرية الذي جرى استحضاره كثيرًا في الجدل العام في إسرائيل.

قام رئيس الوزراء الإسرائيلي "أرييل شارون" بزيارة الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٢ بضغط من الإدارة الأمريكية من أجل طرح

برنامج سلمي يمكن أن يكون مقبولاً لدى الفلسطينيين والدول العربية، ناقش الاثنان خطط عقد قمة إقليمية في وقت لاحق من عام ٢٠٠٢ وعرض الجانب الإسرائيلي وثائق زعم أنها تثبت تورط ياسر عرفات والسلطة الفلسطينية في أعمال إرهابية، وقد وردت أنباء أثناء اجتماع بوش وشارون عن تفجير استشهادي قامت به حركة حماس، الأمر الذي جعل شارون يقطع زيارته ويعود إلى إسرائيل.

تم التوصل إلى حل الحصار لمبنى المقاطعة (مقر الرئاسة الفلسطينية) وكنيسة المهد في أيار ٢٠٠٢، وجرى إبعاد المسلحين في كنيسة المهد إلى قبرص وأوروبا، أما بعض المطلوبين الذين كانوا في مجمع المقاطعة في رام الله فقد جرى حبسهم في أريحا، لكن من الواضح أن قسمًا من المطلوبين ظل في المجمع، وقد زعمت إسرائيل أن زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان يتولى تنسيق الهجمات الاستشهادية من زنزانة سجنه في أريحا. وتحت ضغوط من أجل الإصلاح الديمقراطي، وقّع ياسر عرفات في نهاية أيار القانون الأساسي أو دستور الدولة الانتقالية الفلسطينية، وينص هذا الدستور على أن القانون الفلسطيني قائم على مبادئ الشريعة الإسلامية.

وبعد موجة جديدة من الهجمات الاستشهادية الفلسطينية في حزيران أعادت القوات الإسرائيلية احتلال معظم أنحاء الضفة الغربية، وسرعان ما زعمت الحكومة الإسرائيلية أن إعادة الاحتلال هذه لن تستمر من غير نهاية، لكنها عادت فأشارت إلى غير ذلك في وقت

لاحق، وألقى الرئيس بوش كلمة طال انتظارها تناولت سياسة الشرق الأوسط ودعت إلى قيام دولة فلسطينية، لكنها أصرت على ضرورة الإصلاح الديمقراطي في السلطة الفلسطينية.

وفي شهري آب وأيلول ٢٠٠٢ أحبطت عدة محاولات لوقف إطلاق النار من جانب الفلسطينيين بفعل رفض الجماعات المشاركة فيها، وبفعل الأعمال التي قامت بها إسرائيل، مثل اغتيال الشهيد صلاح شحادة الذي كان قائد الجناح العسكري في حماس، وذلك خلال غارة صاروخية على غزة سقط ضحيتها ١٣ مدنيًا، حل محمد ضيف محل صلاح شحادة، مرت ستة أسابيع من شهر آب وأيلول هدأت فيها الهجمات الكبيرة مما سهَّل وضع خطة إسرائيلية فلسطينية من أجل إعادة السلطة الفلسطينية الكاملة إلى قطاع غزة وبيت لحم، لكن هذا فشل بعد عدد من الهجمات العنيفة في غزة، وفي أوائل شهر أيلول أحبطت قوات الأمن الإسرائيلية كثيرًا من الهجمات الاستشهادية، وضبطت شاحنة تحمل أكثر من ٦٠٠ كيلوغرام من المتفجرات وعبوات الغاز كان الفلسطينيون يعتزمون استخدامها في هجوم استشهادي كما زعمت إسرائيل.

انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في أيلول للموافقة على الوزارة الجديدة التي جرى اختيارها انسجامًا مع المساعي الإصلاحية، لكن أعضاء الحكومة في المجلس رفضوا المصادقة على الحكومة الجديدة حتى يقبل ياسر عرفات بوجود رئيس الوزراء يقاسمه السلطة، بدلاً

من ذلك وافق عرفات على إجراء الانتخابات في كانون الثاني ٢٠٠٣ رغم الاحتلال الإسرائيلي، كانت إذ ذاك شعبية عرفات قد تراجعت بين الفلسطينيين ولم تُجرَ تلك الانتخابات أبدًا، وانتهت فترة الهدوء النسبي بتفجير استشهادي في أم الفحم وفي حافلة في تل أبيب، ردت الحكومة الإسرائيلية بالهجوم على غزة ودخلت مدينة غزة ذاتها كما حاصرت ياسر عرفات ومعه نحو ٢٠٠ شخص في مبنى المقاطعة في رام الله، طالبت إسرائيل الفلسطينيين بتسليم الأشخاص المطلوبين الذين لجأوا إلى مبنى المقاطعة، وكان بينهم رئيس الأمن الوقائي الفلسطيني توفيق الطيراوي، ولما رُفِضَ هذا الطلب قامت إسرائيل بتدمير جميع مبنى المقاطعة باستثناء المبنى الرئيسي لكنها وعدت بعدم إيذاء عرفات، وبعد سريان شائعة بأن إسرائيل تعتزم نسف مبنى المقاطعة انطلقت مظاهرات ضخمة في الضفة الغربية وغزة سقط فيها ٤ قتلى، ضغطت الولايات المتحدة على إسرائيل لكي تتوقف عن تدمير المبنى في مجمع المقاطعة وتنسحب، استمر الحصار الإسرائيلي رغم قرار الأمم المتحدة، ورفع الحصار في النهاية لكن عرفات ظل محتجزًا ومعزولاً في رام الله.
جرى فرض حصار جديد في الخريف، وفي نيسان ٢٠٠٢ أطلقت الحكومة الأمريكية سلسلة مشاورات مع مجموعة الدبلوماسيين، وصارت تعرف باسم "اللجنة الرباعية"، وضعت هذه اللجنة خطة طريق فيما يخص الاستيطان تتضمن انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة وإقامة الدولة الفلسطينية، وفي تشرين الأول ٢٠٠٢ انسحب

حزب العمل من الحكومة الإسرائيلية، ودعا رئيس الوزراء آرييل شارون إلى انتخابات فورية تُجرى في ٢٨ كانون الثاني ٢٠٠٣، وفي الانتخابات حظي حزب شارون (الليكود) بتفويض ساحق لمواصلة السياسات المتشددة إزاء الفلسطينيين، رفض حزب العمل الإسرائيلي تشكيل حكومة ائتلاف، وواصلت إسرائيل احتلال معظم أجزاء الضفة الغربية.

وخلال هذه الفترة واصلت الولايات المتحدة حشد القوات من أجل غزو العراق، كان الفلسطينيون مؤيدين لصدام حسين وكان نظامه قد قدَّم الأموال لعائلات الشهداء، إضافة إلى إيواء المقاتلين الفلسطينيين، دخلت القوات الأمريكية بغداد يوم ٩ نيسان، وأعلن الرئيس بوش انتهاء الحرب في الأول من أيار عام ٢٠٠٣.

تلك الحرب على العراق سببت جيشانًا واضطرابًا في الشرق الأوسط وكان الفلسطينيون أكثر من تأثر بها، دهش العرب لسرعة سقوط العراق وسارعت الحكومات العربية بما فيها السلطة الفلسطينية إلى إبداء إشارات تصالحية، وإلى الحديث عن الديمقراطية مع انتقاد خجول للاحتلال الأمريكي للعراق الذي ولَّدَ قدرًا كبيرًا من السخط، انتخب محمود عباس رئيسًا للوزراء في فلسطين في ٢٩ نيسان، لكن العنف لم يهدأ، نفَّذ الإسرائيليون غارات دموية في غزة وغيرها يوم انتخاب عباس، وبعد ساعات معدودة نفَّذت حركة حماس هجومًا استشهاديًا في ملهى ليلي في تل أبيب، وفي اليوم التالي بدأ الجيش

الإسرائيلي بغارات مكثفة في المناطق، وخلافًا لخطة الطريق تولى ياسر عرفات مسؤولية تنظيم قوة أمنية موحدة جديدة، كانت الولايات المتحدة طبقًا لما وعدت به الفلسطينيين؛ قد أطلقت خطة طريق مُحدَّثة يوم ٣٠ نيسان، أي عقب انتخاب أبو مازن مباشرة، وفي قمة احتفالية عُقدت في العقبة يوم ٤ حزيران تعهد كل من رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون ورئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس بالوفاء بشروط خطة الطريق، ثم تصافحا في حضور الرئيس الأمريكي جورج بوش، ودعا أبو مازن إلى وقف العنف.

تعهد زعماء حركتي حماس والجهاد الإسلامي الإسلاميتين الوطنيتين بمواصلة المقاومة، وبعد تلك القمة مباشرة قتل أربعة جنود إسرائيليين في غزة في عملية مشتركة، لم تقتصر المشاركة فيها على الإسلاميين وحدهم إذ شاركت فيها حركة فتح المنشقة عن حركة محمود عباس. بدأت إسرائيل تفكيك زهاء ١٠٠ نقطة عسكرية غير قانونية، لكن هذا التفكيك اقتصر على النقاط غير المأهولة، وفي ١٠ حزيران حاولت إسرائيل اغتيال زعيم حماس أحمد ياسين مما أثار الغضب بين الفلسطينيين والانتقاد الموجه إلى الولايات المتحدة. وفي ١١ حزيران، قتل تفجير انتحاري ١٦ إسرائيليًا في حافلة في شارع رئيسي من شوارع القدس، وفي ٢٠ آب قتل تفجير انتحاري آخر ٢١ شخصًا في حافلة في القدس، وفي اليوم التالي اغتالت إسرائيل أحد قادة حماس ويدعى إسماعيل أبو شنب، ولعل ذلك كان

انتقامًا لتلك التفجيرات، أعلنت إسرائيل أيضًا إهدار دم جميع قادة حماس ونفذت عدة محاولات لاغتيالهم فشل بعضها، وكان من بين المستهدفين "الزعيم الروحي" المسن المُقعد لحركة حماس، ومع استمرار تهاوي الهدنة سرت شائعات قالت إن متطرفين فلسطينيين حاولوا اغتيال رئيس وزراء السلطة الفلسطينية محمود عباس، وفي الأيام التي أعقبت ذلك دخلت إسرائيل الضفة الغربية من أجل عملية "تطهير أمني" تدوم عدة أيام. بدأ عباس ورئيس جهاز الأمن في غزة محمد دحلان التحرك ضد المقاومين الفلسطينيين وفقًا لمقتضيات خطة الطريق؛ في حين حاول ياسر عرفات أن يستبدل بمحمد دحلان جبريل الرجوب وأن يضع الأجهزة الأمنية ووزارة الداخلية في أيدي أنصاره. أعلن عباس في ٤ أيلول أنه لن يتحرك ضد المقاومين، لكن هذا لم يفلح في جعله يتمكن من الاستمرار في منصبه فاستقال في ٦ أيلول وخَلَفه أحمد قريع (أبو العلاء) الذي كان من أنصار عرفات. تعهد قريع بانتهاج خط متشدد إزاء إسرائيل، وفي ٨ أيلول قرر زعماء الاتحاد الأوروبي فرض حظر على الجناح السياسي لحركة حماس وعلى منع التبرعات النقدية المقدمة إليها.

وفي مساء ١٠ أيلول ٢٠٠٣ سقط ١٥ قتيلاً في تفجيرين انتحاريين متزامنين في القدس، وبالقرب من قاعدة زريفين العسكرية، قرب "ريشون لتسيون"، انتهت فترة الحرب الهادئة بتفجير انتحاري آخر في مطعم في حيفا يوم ٤ تشرين الأول تمَّت نسبته إلى حركة الجهاد

الإسلامي، أدانت السلطة الفلسطينية ورئيس وزرائها المُعيَّن أحمد قريع ذلك التفجير، لكنهما لم يتمكنا من الالتزام باتخاذ خطوات ضد الفصائل الفلسطينية المقاتلة، وعلى سبيل الانتقام قامت إسرائيل باجتياح غزة وجنين؛ وفي ٥ تشرين الأول ضربت قاعدة في سوريا زعمت أنها قاعدة لتدريب الجماعات الفلسطينية، كان هذا أول هجوم إسرائيلي في الأراضي السورية منذ حرب يوم الغفران (حرب رمضان) عام ١٩٧٣، بعد ذلك بدأت فترة طويلة من الهدوء النسبي في الهجمات الفلسطينية، لكن إسرائيل واصلت مهاجمة الأهداف الفلسطينية موقعة خسائر كبيرة في أرواح المدنيين، استمر حدوث الهجمات الاستشهادية من وقت لآخر من قِبل فصائل حماس أو الجهاد الإسلامي أو من قِبل كتائب الأقصى التي هي جزء من حركة فتح من الواضح أن السلطة الفلسطينية فقدت سيطرتها عليه، جرى تنفيذ تفجيرات انتحارية في ٢٥ كانون الأول ٢٠٠٣ وفي ١٤ و٢٩ كانون الثاني ٢٠٠٤ وفي ٢٢ شباط أيضًا من قِبل كتائب الأقصى التابعة لحركة فتح ومن قبل حماس والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

اتفاق جنيف أعلن فيه زعماء المعارضة الإسرائيلية وقادة فلسطينيون عن اتفاق مبادئ بشأن شروط الحل النهائي، يطرح هذا الاتفاق الذي صار يعرف باسم اتفاق جنيف تقديم تنازلات تاريخية من الجانبين: تتخلى إسرائيل عن السيادة على الشطر العربي من القدس، في حين يتخلى الفلسطينيون بوضوح عن حق اللاجئين في العودة إلى

إسرائيل، ورغم انعدام الصفة الرسمية لذلك الاتفاق في وقته فقد حظي بدعاية واسعة، وتضمنت تأييدًا من جانب وزير الخارجية الأمريكي كولن باول وتحبيذًا حارًا من جانب ياسر عرفات، شجبت الحكومة الإسرائيلية هذا الاتفاق والمشاركين فيه وحاولت منع الترويج له في وسائل الإعلام العامة، وعلى نحوٍ مماثل، شجبه المقاومون الفلسطينيون وحلفاؤهم.

الجدار الأمني (يدعى أيضًا السياج الأمني أو جدار الفصل العنصري) كان من بين القضايا الكبرى التي أثيرت خلال الحملة الانتخابية الإسرائيلية عام ٢٠٠٣ إقامة حاجز أمني (سياج أو جدار)، دعا إلى بنائه حزب الحمائم في إسرائيل، حزب العمل. وكان من المزمع أن يقام الجدار على امتداد الخط الأخضر ليساهم في منع الهجمات الانتحارية داخل إسرائيل، وكان حاجز مماثل في غزة قد استطاع تقليل حالات التسلل حتى الصفر، لكن اليمين، بما فيه حزب الليكود بزعامة آرييل شارون، عارض إقامة هذا الجدار لأن من شأنه أن يخلق حدود أمر واقع، كما رأوا، فيقسم القدس ويضع معظم المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، خارج حماية الترتيبات الأمنية. فاز شارون وحزبه في الانتخابات بأغلبية كبيرة موقعين فوضى شاملة في حزب العمل وحزب ميريتس اليساري.

وخلال عام ٢٠٠٣ تبنى رئيس الوزراء آرييل شارون فكرة الجدار العازل وعدَّلها، فغير مسار الجدار ليشمل كبرى المستوطنات

الإسرائيلية وجعل فيه قسمًا ناتئًا من جهة الشرق من شأنه فصل الفلسطينيين إلى جيبين، ومع المضي في إنشاء الجدار صار من الواضح أنه يحجز كثيرًا من الفلسطينيين فيفصلهم عن حقولهم وأماكن عملهم التي يقع بعضها على الجانب الإسرائيلي من الخط الأخضر الذي رسمته هدنة ١٩٤٨ ويقع بعضها الآخر على الجانب الفلسطيني، وفي المناطق المأهولة حيث يظهر الجدار أكثر من المناطق الأخرى، تمت إقامته على شكل جدار إسمنتي ضخم رغم أن معظم أجزائه الأخرى مبنية على شكل سياج، بدأت الجماعات الفلسطينية وجماعات السلام الإسرائيلية حملة احتجاج شديدة، وفي ٨ كانون الأول ٢٠٠٣ عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة جلسة طارئة فأصدرت القرار رقم (ES-10/14)، الذي طلب من محكمة العدل الدولية في لاهاي رأيًا استشاريًا فيما يخص شرعية إقامة الجدار، بدأت المحكمة مداولاتها في ٢٤ شباط لكن إسرائيل قاطعت جلساتها رغم أنها قدمت مذكرة موجزة مفادها أن على المحكمة عدم إصدار حكم في هذه القضية، وقد قدم نحو ٣٠ بلدًا آخر، من بينها الولايات المتحدة وعدة دول أوروبية، مذكرات تقول إن على المحكمة عدم إصدار حكم لأن المسألة سياسية لا قانونية؛ ولذلك امتنعت هذه الدول كلها عن حضور الجلسات، على أن أكثر هذه الدول انتقدت الجدار باعتباره غير شرعي، أو باعتباره عقبة في وجه مفاوضات السلام. قامت جماعات إسرائيلية وصهيونية بتنظيم مظاهرات في لاهاي، ونظم الفلسطينيون مظاهرات مضادة.

جلب الإسرائيليون حافلة تعرضت للتفجير وقالوا إن الجدار يمنع الهجمات الانتحارية، أما الفلسطينيون فاستخدموا الجلسات منبرًا من أجل نزع الشرعية عن الاحتلال، وفي ٩ تموز خرجت محكمة العدل الدولية برأي استشاري فيما يخص السياج الأمني الإسرائيلي، قررت المحكمة أن هذا السياج ينتهك حقوق الإنسان، وأن على إسرائيل تفكيكه، أعلنت إسرائيل عدم التزامها بقرار المحكمة لكنها أدخلت تغييرات على مسار الجدار نزولاً عند قرار المحكمة الإسرائيلية العليا.

فضيحة الفساد الإسرائيلية منذ انتخاب آرييل شارون في عام ٢٠٠٣ حامت حوله الشكوك كما حامت حول عدد من أعضاء حزب الليكود بسبب مزاعم بالرشوة والعلاقة مع عصابات إجرامية، وفي كانون الثاني ٢٠٠٣ أدين دافيد آبيل بتهمة الرشوة، وقد كان أحد أقرب مساعدي آرييل شارون، وقالت لائحة الاتهام إنه قدم الرشوة إلى شارون وابنه وإلى نائب رئيس الوزراء إيهود أولمرت، وكان السؤال الواضح هو: هل سيُدان آرييل شارون أم لا؟.

جدل بشأن تبادل السجناء بعد شهور طويلة من المفاوضات من خلال وساطة ألمانية، اتفق كل من إسرائيل وحزب الله اللبناني على تبادل للسجناء وفق شروط من جانب واحد، وذلك في ٢٩ كانون الثاني ٢٠٠٤. أطلقت إسرائيل سراح أكثر من ٤٠٠ سجين فلسطيني ولبناني أحياء، وأعادت عددًا كبيرًا من الجثث مقابل جثث ثلاثة

جنود إسرائيليين اختطفهم حزب الله وقتلهم، وجثمان مدني واحد هو ضابط الاحتياط الحنان تاننباوم الذي كان "رجل أعمال" مريب، كذب بشأن كيفية اختطافه وقدم لحزب الله دعاية مجانية عبر تلفزيون المنار.

اغتيال الشيخ أحمد ياسين:

كانت إسرائيل تستهدف زعيم حركة حماس الشيخ أحمد ياسين منذ شهور كثيرة بغية اغتياله، وفي أعقاب هجوم انتحاري في ميناء أشدود؛ صعَّد جيش الدفاع الإسرائيلي عملياته ضد الإسلاميين في غزة وأعلن من جديد أن قادة حماس مستهدفون بالاغتيال.

وفي ٢٢ آذار أكدت معلومات استخباراتية إسرائيلية أن أحمد ياسين (مؤسس حركة حماس الإسلامية وزعيمها) ذهب إلى الصلاة من غير زوجته وأطفاله، فأعطي الضوء الأخضر لاغتياله.

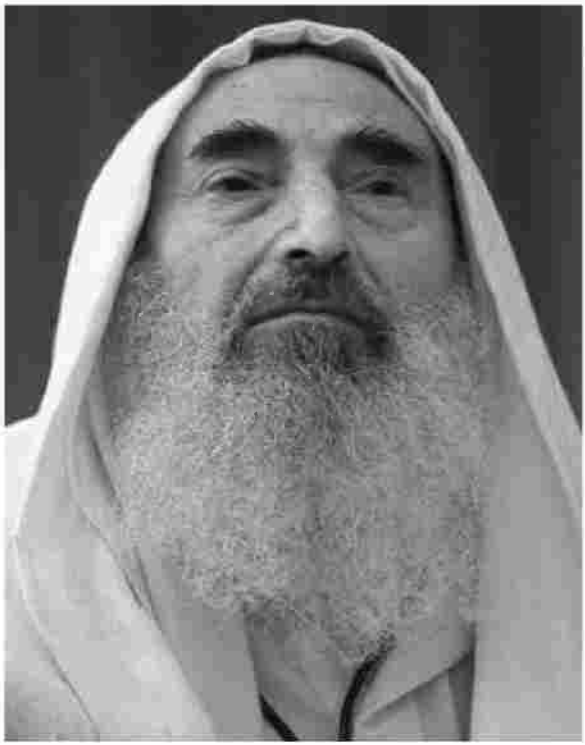

لقد أدى اغتيال هذا الرجل العجوز المُقعد إلى احتجاجات في معظم أنحاء العالم وإلى تعهد حركة حماس بالثأر له، لعل القيمة الاستراتيجية لاغتياله كانت قليلة؛ ولعله اغتيل من أجل تعزيز شعبية آرييل شارون المتراجعة.

■ الفصل الخامس عشر

خطة فك الارتباط

وخطاب الضمانات من جورج بوش

كان ثمة اقتراح من حزب العمل الإسرائيلي بقيادة عاميرام ميتزنا خلال الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٣، مفاده أنه على إسرائيل أن تنسحب من جانب واحد من قطاع غزة، وربما من بعض أجزاء الضفة الغربية، وأن تواصل حياتها خلف الجدار الفاصل إذا فشلت المفاوضات مع الفلسطينيين، رفض شارون وحزبه هذا الاقتراح باعتباره انهزاميًا، لكن شارون نفسه أعلن قبيل نهاية عام ٢٠٠٣ أنه يخطط للانسحاب من جانب واحد يجري خلال ستة أشهر (تم تأجيل هذا التاريخ فيما بعد)، جوبهت خطة الانسحاب من كامل قطاع غزة بمعارضة شديدة من زملاء شارون في حزب الليكود ومن المستوطنين أيضًا، وقد أشارت التقارير في أواخر شهر شباط إلى أن إسرائيل مازالت تواصل مصادرة الأراضي وبناء الحواجز الأمنية من أجل مستوطني غزة، رغم ما قيل عن إن شارون قرر إخلاء المستوطنات.

وفي نيسان ٢٠٠٤ سافر شارون إلى الولايات المتحدة واجتمع في ١٤ نيسان مع الرئيس الأمريكي جورج بوش من أجل الحصول على مساندة وضمانات أمريكية من أجل خطة فك الارتباط من جانب واحد التي طرحها شارون، قدَّم بوش له خطابًا ينص على أن الولايات المتحدة تقبل هذه الخطة وأن خطة الطريق تظل هي خطة السلام الوحيدة التي تؤيدها الولايات المتحدة، وحتى يكسب شارون شعبية لصالح هذه الخطة في إسرائيل، صرح بوش أن الولايات المتحدة ترى وجوب إقامة اللاجئين الفلسطينيين في الدولة الفلسطينية الجديدة لا في إسرائيل؛ أي أنه لا حاجة لإلزام إسرائيل - برأيه - بالانسحاب حتى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩، إضافة إلى أن الولايات المتحدة تقبل بالسياج الأمني الإسرائيلي. كرر شارون التزام إسرائيل بخطة الطريق وتعهد بأن يكون السياج الأمني حاجزًا مؤقتًا لا حدودًا نهائية، لم يكن لخطاب بوش وزن كبير فيما يخص المفاوضات في المستقبل، فقد كرر مواقف اتخذها الرئيس الأسبق كلينتون بشأن اللاجئين والحدود، ورغم ذلك أثار الخطاب غضبًا في العالم الإسلامي، خسرت خطة الانسحاب من جانب واحد الاستفتاء الذي أجري داخل حزب الليكود يوم ٢ أيار ٢٠٠٤ فاقترح شارون نسخة معدلة منها، وفي أيار نفذت إسرائيل عملية عسكرية واسعة في غزة (عملية قوس قزح) قتلت فيها أكثر من ٤٠ شخصًا وشردت الآلاف وأثارت غضبًا دوليًا.

وفي أواخر تشرين الأول أقر البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) قانون فك الارتباط في القراءة الأولى، مما أدى إلى خروج الحزب القومي الديني اليميني من الحكومة التي تراجعت أغلبيتها النيابية إلى ٥٥ مقعدًا بسبب خروجه.

- اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي في ١٧ نيسان ٢٠٠٤ :

قتل جيش الدفاع الإسرائيلي زعيم حماس المنتخب حديثًا عبد العزيز الرنتيسي، ومن الواضح أن د. محمود الزهار قد انتخب ليحل محله، لكن من غير إعلان رسمي عن ذلك خشية الانتقام الإسرائيلي، ويقال إن الزهار هو الأخير الباقي على قيد الحياة من بين سبعة أشخاص أسسوا حركة حماس، أما الستة الباقون فقد اغتالتهم إسرائيل جميعًا.

- حكومة أحمد قريع بعد فترة طويلة من المفاوضات:

شكَّل أحمد قريع حكومة دائمة، وبدأت التحركات من أجل التوصل إلى وقف إطلاق النار وتجديد المفاوضات مع الإسرائيليين، لكن حصيلة هذه التحركات كانت قليلة جدًا، ففي ١٩ تشرين الثاني اتخذ مجلس الأمن الدولي القرار رقم ١٥١٥ الذي اعتمد خطة الطريق التي وضعتها اللجنة الرباعية من أجل السلام، ودعا الأطراف إلى الوفاء بما يترتب عليها بموجب هذه الخطة، لكن التوغلات الإسرائيلية تواصلت وبدا الفلسطينيون من جانبهم غير مستعدين لضبط فصائل المقاومة، أو غير قادرين على ذلك.

أعلن عن لقاءات مرتقبة بين رئيسي الوزراء أحمد قريع وآرييل شارون، وكثرت الشائعات والتكهنات بشأنها لكنها تبخرت، ولحين من الوقت كان قريع يعلن أنه لن يجتمع مع شارون حتى توقف إسرائيل بناء السياج الأمني، لكن عندما أعلن شارون خطة فك الارتباط من جانب واحد وبدا أنه صادق في ذلك، صار قريع قلقًا من أن يكون انسحاب الإسرائيليين دون مفاوضات نصرًا لحماس والجهاد الإسلامي، الخصمين السياسيين لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تدير السلطة الوطنية الفلسطينية، واللذين يأملان في وراثة الزعامة الفلسطينية، أعلن قريع عند ذلك استعداده للاجتماع مع شارون وأن هذا الاجتماع سيحدث بكل تأكيد في أواخر شباط، لكن المفاوضات الرامية إلى وضع جدول أعمال هذا الاجتماع

تأجل لأسبابٍ كثيرة، من بينها وقوع تفجيرات استشهادية وقيام إسرائيل بمزيد من الاغتيالات.

فوضى في غزة في هذه الأثناء، صار من الواضح أن قريع غير قادر على الحكم فعلاً رغم بعض النجاح في ميدان تحسين الشفافية المالية، نزولاً عند مطالب الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة، وفي أوائل ٢٠٠٤ وردت أخبار كثيرة عن الفوضى وانعدام القانون في المناطق الفلسطينية، وعند نهاية شهر شباط أعلن رئيس الأمن الفلسطيني السابق محمد دحلان أن السلطة الفلسطينية ما عادت قادرة على لجم كتائب شهداء الأقصى المنشقة عن فتح، والتي كانت مسؤولة عن كثير من التفجيرات الانتحارية، أما محاولات توحيد الأجهزة الأمنية، التي عرقلها عرفات، فقد انتهت بالشقاق والاتهامات المتبادلة، وفي ٢٦ شباط وعد الرئيس عرفات بإجراء الانتخابات التي طال تأجيلها؛ لكن كثيرًا من الفلسطينيين لم يصدقوا هذا الوعد، وفي نابلس سادت حالة من انعدام القانون واستقال محافظ المدينة.

اندلع العنف في غزة يوم ١٨ تموز ٢٠٠٤ بين فصائل من حركة فتح، اختطفت إحدى المجموعات قائد الشرطة غازي الجبالي وعددًا من المواطنين الفرنسيين، ثم أطلقت سراحهم شريطة مثول الجبالي أمام القضاء، أعاد ياسر عرفات تنظيم الأمن وعين ابن شقيقه موسى عرفات مسؤولاً عن قوات الأمن الفلسطينية، ردت القوى المعارضة باجتياح مقر موسى عرفات، وبعد ذلك أعلن رئيس

الوزراء أحمد قريع استقالته فلم يقبلها عرفات، لكن قريع أصر على الاستقالة، أعلن عرفات عن سحب تعيين موسى عرفات؛ لكنه أعلن أيضًا أن موسى سيظل مسؤولاً عن الأمن في غزة، استدعت المطالبات اللاحقة بالإصلاح مزيدًا من التصريحات من جانب عرفات، وعندما لم ينفذ شيء من تلك التصريحات؛ أعلن أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني تأجيل اجتماعه احتجاجًا.

- الوضع الأمني في عام ٢٠٠٤:

لم تقع هجمات كبيرة ناجحة خلال ربيع وصيف ٢٠٠٤ رغم كثرة المحاولات، وقد عزا الفلسطينيون والإسرائيليون ذلك الهدوء النسبي إلى السياج الأمني الذي أنجز جزئيًا وإلى تحسن أداء الاستخبارات الإسرائيلية، واصلت إسرائيل اعتقال وقتل الفلسطينيين المنتمين للمقاومة، وواصلت احتلال المدن الفلسطينية في الضفة الغربية. وفي ٣١ آب ٢٠٠٤ ارتكبت حماس هجومًا استشهاديًا مزدوجًا في بئر السبع انتقامًا لقتل قادتها، جاء المهاجمون من منطقة تقع جنوب مدينة الخليل في الضفة الغربية حيث لم يجر بناء السياج الأمني بعد، أدى الهجوم إلى تسريع بناء الجدار ونفذت إسرائيل انتقامًا دمويًا من خلال قصف مخيم تدريب لحماس في غزة، وفي تشرين الأول ٢٠٠٤ نفذت إسرائيل عملية "أيام الندم" من أجل إيقاف تساقط الصواريخ الفلسطينية على البلدات الإسرائيلية، قُتل وشرّد في هذه العملية كثير من المدنيين.

▪ الفصل السادس عشر

محادثات السلام السورية الإسرائيلية

انطلقت محادثات السلام بين سوريا وإسرائيل بعد مؤتمر مدريد للسلام، ويقال إن الجانبين توصلا في أيار ١٩٩٥ إلى إنجاز اتفاقية سلام تفصيلية تتضمن انسحابًا إسرائيليًا من مرتفعات الجولان التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ ثم قامت بضمها في وقتٍ لاحق، وفي المقابل، يعترف السوريون بإسرائيل ويسمحون بتجارة طبيعية معها وبإقامة محطات إنذار مبكر إسرائيلية على الأراضي السورية، كان الوعد الإسرائيلي بالانسحاب من الجولان كله قد قدم بشكل غير مباشر من رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين إلى وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر، بصفة "وديعة" يجري تقديمها إلى السوريين إذا وافقوا على بقية الشروط الإسرائيلية، وقد أطلق على هذه الوديعة أيضًا اسم "الجيب" بسبب ما قيل من أن رابين قال لكريستوفر "ضع هذه في جيبك" حتى تتحقق بقية الشروط.

وخلال المفاوضات، خالف كريستوفر هذا التفاهم مع رابين وأخبر الأسد عن "الوديعة"، وخلال فترة استمرار المفاوضات كان رابين يكثر من ترديد شعار: "سيكون عمق الانسحاب مساويًا لعمق السلام"، مشيرًا إلى أن إسرائيل ستكون مستعدة للانسحاب حتى

خطوط الهدنة مقابل السلام الحقيقي، لكن المفاوضات مع حكومة رابين لم تستمر فقد اغتيل رابين يوم ٥ تشرين الثاني ١٩٩٥.

تم تجديد المفاوضات في كانون الثاني ٢٠٠٠ من قبل رئيس الوزراء إيهود باراك، لكنها انتهت بالفشل أخيرًا في ٢٧ آذار ٢٠٠٠، أصرت سوريا على مواصلة المفاوضات من النقطة التي توقفت عندها، بما في ذلك "وديعة رابين". والواقع أن رابين وعد في "وديعته" بالانسحاب حتى خطوط ٤ حزيران، لكن باراك ما كان راغبًا في تقديم ذلك، على أن باراك وافق تحت ضغط الولايات المتحدة، على الوفاء بتعهد الانسحاب حتى خطوط ٤ حزيران ١٩٦٧، مع تغييراتٍ طفيفة. قدم الرئيس الأمريكي كلينتون للرئيس الأسد اقتراحًا إسرائيليًا بالانسحاب حتى خطوط ٤ حزيران استنادًا إلى حدود يتفق عليها الطرفان وفقًا للخريطة المبينة هنا، كان هذا الاقتراح منسجمًا مع اتفاقات سابقة تم التوصل إليها مع السوريين، لكن الأسد رفض الاقتراح، توفي حافظ الأسد في ١٠ حزيران ٢٠٠٠ وحل محله ابنه بشار، وأما المسار السلمي السوري الإسرائيلي فتراجع عن واجهة الأحداث.

بعد أن عارضت سوريا العراق عام ١٩٩١ (غزو الكويت) وتعاونت مع الولايات المتحدة، عادت إلى التعاون مع صدام حسين في الحرب العراقية عام ٢٠٠٣، وبعد الحرب استضافت سوريا المنفيين العراقيين، ومن الواضح أنها قدمت المأوى للجماعات المتمردة،

تزايد عدم رضا الولايات المتحدة عن دور سوريا، الحقيقي أو المزعوم، في التمرد العراقي وبدأ مسئولوا الإدارة الأمريكية يضغطون على سوريا لمنع المتمردين العراقيين من عبور حدودها إلى العراق وللكف عن دعم المقاومة، بما فيها حزب الله اللبناني وحماس، التي لها مقرات في دمشق. وفي ١٢ كانون الأول ٢٠٠٣ وقّع الرئيس بوش على قانون محاسبة سوريا واستعادة سيادة لبنان لعام ٢٠٠٣. دعا القانون إلى اتخاذ إجراءات في حق سوريا إذا لم تكف عن دعم ما اسماه "الإرهاب" وإذا لم تنسحب من لبنان، واصلت الإدارة الأمريكية الضغط على سوريا؛ وبعد تدخل سوريا في انتخابات الرئاسة اللبنانية، صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٥٥٩ الداعي إلى انسحاب سوريا من لبنان، نفذت سوريا القرار ظاهريًا فسحبت جميع قواتها من لبنان بحلول شهر نيسان ٢٠٠٥ عقب اغتيال السياسي اللبناني واسع الشعبية رفيق الحريري.

تجدد إشارات السلام من جانب سوريا عقب إقرار قانون محاسبة سوريا في الولايات المتحدة أعلنت سوريا أنها مستعدة لتجديد المفاوضات مع إسرائيل من أجل التوصل إلى اتفاقية سلام، وذلك من غير شروطٍ مسبقة. لكنها قالت إن من الواجب استئناف المفاوضات من حيث توقفت، كررت سوريا هذه الدعوة مرات كثيرة خلال تشرين الثاني ٢٠٠٤، كانت العبارة المطروحة في بعض الأحيان هي التفاوض "دون شروط" وفي أحيان أخرى دعا السوريون إلى

مفاوضات "دون شروط قائمة على وديعة رابين" (أي وعد إسحق رابين بالانسحاب حتى خطوط وقف إطلاق النار عام ١٩٤٩)، كانت استجابة إسرائيل لهذه البوادر باردة لأن الولايات المتحدة لم تضغط عليها من أجل استئناف المفاوضات، ولأن حكومة الرئيس الأسد واصلت دعم حزب الله وجماعات "المقاومة" الفلسطينية، ومع أن الرئيس الإسرائيلي كتساف دعا إلى التقاط مبادرة السلام السورية؛ فقد أصر رئيس الوزراء آرييل شارون ووزير خارجيته على أن على سوريا، قبل بدء المحادثات، أن توقف الدعم الذي تقدمه للمقاومة، اغتالت إسرائيل القيادي في حماس عز الدين الشيخ خليل في سوريا يوم ٢٦ أيلول ٢٠٠٤، والظاهر أنها حاولت أيضًا في كانون الأول اغتيال قائد آخر في حماس في دمشق.

▪ الفصل السابع عشر

وفاة ياسر عرفات

توفي رئيس السلطة الفلسطينية، زعيم منظمة التحرير الفلسطينية المزمن، ياسر عرفات في ١١ تشرين الثاني ٢٠٠٤، تاركًا خلفه مستقبلاً غير واضح. ثمة بعض المؤشرات إلى أن وفاة عرفات فتحت إمكانيات جديدة من أجل السلام، وكذلك من أجل الإصلاح والديمقراطية في السلطة الفلسطينية.

- عرفات مع كبير حاخامي إسرائيل -

بدأ التحضير للانتخابات الفلسطينية بطريقة منظمة؛ وكان محمود عباس أبرز المرشحين، وأعلن قائد كتائب شهداء الأقصى مروان البرغوثي، السجين لدى إسرائيل بسبب صلته بكثير من الهجمات الاستشهادية، عن ترشيح نفسه بصفته مرشحًا مستقلاً، لكنه سحب ترشيحه أواسط شهر كانون الأول تحت ضغط من حركة فتح، تكررت وعود عباس خلال حملته الانتخابية بمواصلة القتال من أجل الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس ومن أجل حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، لكنه قال لصحيفة الشرق الأوسط اللندنية إن الانتفاضة العنيفة كانت خاطئة وإن على الفلسطينيين السعي إلى تحقيق أهدافهم بالوسائل الدبلوماسية، وجرى تقليل التحريض ضد إسرائيل في الإعلام الفلسطيني بتوجيهاتٍ صدرت عن عباس.

لم تقع خلال هذه الفترة هجمات عنيفة ناجحة ضد المدنيين داخل إسرائيل؛ لكن جرى إطلاق قذائف الهاون على المستوطنات الإسرائيلية في غزة إضافة إلى قيام فلسطينيين بنسف نقطة حدودية عسكرية إسرائيلية عند الحدود بين غزة ومصر، واصلت إسرائيل اعتقال قادة المقاومة الفلسطينيين واغتيالهم وواصلت احتلال مدن الضفة الغربية وشن الغارات على بعض الأهداف في غزة ردًا على ما يقوم به الفلسطينيون، كما واصلت هدم البيوت وتخريب كروم الزيتون ومضايقة الفلسطينيين عند حواجز التفتيش، قتل كثير من الأطفال الفلسطينيين في هذه الغارات، وقد وجهت انتقادات إلى الجيش

الإسرائيلي في إسرائيل والخارج بسبب لامبالاته بأرواح المدنيين وباحتمال ارتكابه جرائم حرب.

- العلاقات مع مصر بعد وفاة عرفات:

تحسنت العلاقات الإسرائيلية المصرية وخاطب الرئيس المصري حسني مبارك رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون بكلماتٍ دافئة، وفي أوائل كانون الأول أطلقت مصر سراح الإسرائيلي عزام عزام الذي مضت عليه ثمانية أعوام في السجن بسبب اتهامه بالتجسس، وهو اتهام ينكره عزام، وفي الوقت عينه أطلقت إسرائيل سراح ستة طلاب مصريين اتهموا بالتآمر لقتل جنود إسرائيليين، وفي وقتٍ لاحق أطلقت إسرائيل سراح عدد من السجناء الفلسطينيين في "بادرة تجاه مصر" رغم ما قيل عن عدم وجود صلة بين الإجراءات المصرية والإسرائيلية، وفي أواسط كانون الأول وقّعت كل من مصر وإسرائيل والولايات المتحدة معاهدة المناطق الصناعية المؤهلة التي تمنح مصر مزايا تجارية في الولايات المتحدة الأمريكية لقاء المشاريع المشتركة بين مصر وإسرائيل، قام وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط ورئيس المخابرات المصرية عمر سليمان بزيارة القدس، ورغم تحسن العلاقات لم تعد مصر سفيرها إلى إسرائيل بعد أن استدعته في أعقاب انفجار أحداث العنف عام ٢٠٠٠.

- **الفصل الثامن عشر**

عباس يخلف عرفات

تم انتخاب محمود عباس رئيسًا للسلطة الفلسطينية في ٩ كانون الثاني ٢٠٠٥ إذ حصل على ٦١% من الأصوات، ونال أهم منافسيه مصطفى البرغوثي ٢٠%، ومع مشاركة أكثر من ٦٠% ممن يحق لهم الانتخاب، رغم الصعوبات الناجمة عن الاحتلال الإسرائيلي ومقاطعة الانتخابات من قبل الجماعات الإسلامية، وجه الرئيس الأمريكي جورج بوش الدعوة إلى عباس بزيارة واشنطن بعد سنواتٍ طويلة من امتناع البيت الأبيض عن استقبال أي زعيم فلسطيني، وأعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون أنه يعتزم الاتصال بعباس والتخطيط لعقد اجتماع بينهما.

حكومة الوحدة الوطنية في إسرائيل بسبب عدم رضا اليمين الإسرائيلي عن خطة فك الارتباط التي طرحها رئيس الوزراء آرييل شارون، قرر الحزب الوطني الديني ترك الحكومة وحاول أعضاء منشقون من حزب الليكود الحاكم بزعامة شارون منع تشكيل حكومة وحدة وطنية مع حزب العمل، جرى إخراج حزب الوسط شينوي من الحكومة وتم تشكيل تحالف مع حزب العمل الإسرائيلي وحزب التوراة

الموحد، فازت الحكومة الجديدة بثقة الكنيست بفارق بسيط (٥٨ مقابل ٥٦) مع امتناع عدد من نواب حزب الليكود عن التصويت.

في مؤتمر شرم الشيخ دعا الرئيس الفلسطيني محمود عباس بعد انتخابه جميع الفصائل الفلسطينية لإنهاء العنف والتفاوض على اتفاقية هدنة وتم نشر قوات الشرطة الفلسطينية في قطاع غزة مع أوامر واضحة بمنع الهجمات الإرهابية، اتفقت الأطراف على عقد مؤتمر قمة تستضيفه مصر في شرم الشيخ يوم ٨ شباط ٢٠٠٥، وفي ذلك المؤتمر الذي حضره الملك الأردني الملك عبد الله والرئيس المصري مبارك إضافةً إلى الزعيمين الإسرائيلي والفلسطيني، أعلن الجانبان إنهاء العنف، وقالت التقارير الصحفية إن إسرائيل ستطلق سراح أكثر من ٩٠٠ سجين فلسطيني وتنسحب تدريجيًا من المدن الفلسطينية، وأعلنت مصر والأردن عن إعادة سفيريهما إلى إسرائيل، اعتبرت الانتفاضة منتهية من الوجهة الرسمية. لكن وعلى غرار ما كان يحدث بعد القمم التي من هذا النوع، سرعان ما تحطمت آمال السلام بفعل تفجير استشهادي في تل أبيب يوم ٢٥ شباط، كان من الواضح أن حركة الجهاد الإسلامي التي تسيطر عليها دمشق هي من ارتكبه، أعلنت إسرائيل تجميد التسليم المخطط للمدن الفلسطينية إلى قوات الأمن الفلسطينية، أدان محمود عباس التفجير وقامت السلطة الوطنية الفلسطينية بالاعتقالات بين الناشطين الفلسطينيين بهدف منعهم من مقاومة إسرائيل.

- قرار فك الارتباط يُعيد مؤتمر شرم الشيخ:

وافق الكنيست الإسرائيلي على خطة فك الارتباط ثم وافقت عليها الحكومة الإسرائيلية يوم ٢٠ شباط، دعت هذه الخطة إلى إخلاء من جانب واحد لإحدى وعشرين مستوطنة في غزة وأربع مستوطنات في الضفة الغربية مع حلول صيف ٢٠٠٥، وكان من المفترض أن يجري تنسيق فك الارتباط مع السلطة الفلسطينية، وقد وعد محمود عباس الذي كان رئيسًا للوزراء في ذلك الوقت بالمساعدة على ضمان الهدوء أثناء إخلاء المستوطنات.

مؤتمر لندن عقد في لندن يوم ١ آذار ٢٠٠٥، مؤتمر استضافته بريطانيا، كان هدف المؤتمر تنظيم الدعم المالي للحكومة الفلسطينية والمساعدة في تنظيم قوات الأمن الفلسطينية، لم تحضر إسرائيل هذا المؤتمر ولم يتم التعرض المباشر للقضايا الثنائية، لكن الرئيس الفلسطيني عباس قال إن إنهاء الاحتلال وتحقيق السلام هدفان يتصدران أولويات الفلسطينيين.

مؤتمر القاهرة والتهدئة، اجتمعت الجماعات المقاتلة الفلسطينية في القاهرة أواسط شهر آذار ووافقت على التهدئة التي كانت أقل من هدنة، بدأت تحركات حماس والجهاد الإسلامي من أجل الانضمام إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وأعلنت حماس اعتزامها المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني المقرر إجراؤها في

أيار، انسحبت إسرائيل من أريحا؛ ثم انسحبت من طولكرم بعد أسبوع، أوقفت إسرائيل انسحابها من مدينة فلسطينية ثالثة في ذلك الشهر لأنها زعمت أن السلطة الفلسطينية لم تكن تقوم بنزع أسلحة من الفلسطينيين وفقًا لما تنص عليه خطة الطريق، واصلت إسرائيل خلال هذه الفترة اعتقال مقاتلين يقومون بالتخطيط لشن هجمات أو بتهريب الأسلحة؛ لكن قوات السلطة الفلسطينية قامت أيضًا برصد وإجهاض نشاطات فلسطينية أخرى، وفي نهاية آذار قام مقاتلون من كتائب شهداء الأقصى بإطلاق النار على مقر عباس في رام الله بسبب سخطهم إزاء التغيرات في السلطة الفلسطينية، ورغم إعلان السلطات انتهاج سياسة متشددة مع المنشقين؛ أعاد عباس حساباته وقرر محاولة تلطيف الاختلافات، وقد استقال رئيس المخابرات الفلسطينية في الضفة الغربية توفيق الطيراوي بسبب ضعف الجهود المبذولة من أجل تحقيق سيادة القانون، كما قال.

- القمة العربية واقتراح السلام:

تجاهلت القمة العربية المنعقدة في الجزائر معظم القضايا الملحة في العالم العربي ورفضت مبادرة سلام جديدة قدمها ملك الأردن عبد الله، وبدلاً من ذلك كررت القمة دعمها لمبادرة السلام السعودية التي اعتمدتها قمة بيروت عام ٢٠٠٢ ورفضتها إسرائيل، وقد أشارت

إسرائيل إلى أن هذه المقترحات غدت قديمة الآن بفعل التغيرات التي طرأت على واقع الشرق الأوسط.

النقاط العسكرية غير الشرعية في آذار ٢٠٠٥، وافقت الحكومة الإسرائيلية على تقرير عن النقاط العسكرية جرى إعداده من قبل تاليا ساسون بناءً على طلب من الحكومة، يتحرى التقرير أوضاع عدد كبير من النقاط العسكرية غير الشرعية التي تمت إقامتها في الضفة الغربية من غير موافقة رسمية أو تفويض حكومي بعد آذار ٢٠٠١، ثمة ٢٠ ــ ٣٠ نقطة عسكرية كان من المفترض إخلاؤها بموجب خريطة الطريق، وقد فشلت قرارات ومحاولات حكومية متكررة لإخلاء هذه النقاط، شكلت الحكومة لجنة لدراسة التقرير، لكنها لم تتخذ أي إجراء.

الجدل بشأن المستوطنات، كان الفلسطينيون مستاءين من تواصل بناء السياج الأمني الذي يعزل أحياء فلسطينية في القدس، وكذلك من الخطط الإسرائيلية المعلنة لبناء عدة آلاف من الوحدات السكنية الجديدة في المنطقة (E1) قرب مستوطنة معالي أدوميم شرقي القدس، تقع مستوطنة معالي أدوميم ضمن أراضي إسرائيل بموجب اتفاقية جنيف، لكن خريطة الطريق تمنع البناء في المستوطنات، وفي رسالة بعثها إلى آرييل شارون ردًا على إعلان شارون رسميًا عن خطة فك الارتباط، قال الرئيس بوش إن على إسرائيل بشأن

حدود الاستيطان النهائية أن تأخذ في حسبانها التغيرات الناجمة عن ارتفاع كثافة السكان الإسرائيليين في المناطق المحتلة، لعل الإعلان الإسرائيلي كان مصممًا من أجل اختبار هذا التصريح، ومن أجل تعزيز شعبية شارون الواسعة في أوساط مؤيدي اليمين الإسرائيلي. في البداية، شجب كل من وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس والسفير دان كورتزر التصريح الإسرائيلي، وقد أثار رد فعلهما سخط منتقدي شارون اليمينيين وسخط رئيس الوزراء السابق إيهود باراك الذي زعم أن هذا دليل على عدم قيمة الوعود الأمريكية، غيَّر كورتزر ورايس أقوالهما وأنكرا وجود خلاف في الرأي مع الإسرائيليين فيما يخص خطط الاستيطان.

الحركة من غير اتجاه خلال شهري نيسان وأيار، زار الرئيس الأمريكي كل من آرييل شارون ومحمود عباس، كانت هذه الزيارة كبيرة الأهمية من الناحية الرمزية لأنها دليل على أن الولايات المتحدة أنهت عزلة السلطة الفلسطينية، التي بدأت عندما فشل عرفات في اتخاذ أي إجراء ضد المقاومة، وعد الرئيس بوش الفلسطينيين بمساعدات مباشرة بقيمة ٥٠ مليون دولار، إضافةً إلى مبالغ أكبر مخصصة لتقديم المساعدة من خلال المنظمات غير الحكومية، وصرح بوش أن خطوط هدنة ١٩٤٩ هي أساس أي اتفاق، أثارت هذه النقطة الأخيرة جدلاً في إسرائيل لسببٍ ما، ومن ثم اتضح أنها متفقة مع صياغة الرسالة التي سلمها بوش إلى شارون في نيسان ٢٠٠٤،

وبرغم ذلك الصخب كله، لم ينتج عن اجتماع بوش مع شارون أو مع عباس أي تغير واضح في عدم استعداد إسرائيل لتقديم تنازلات للفلسطينيين، أو في عدم استعداد الفلسطينيين لاتخاذ خطوات حاسمة لإنهاء العنف من خلال اعتبار فصائل المقاومة خارجة على القانون وتجريدهم من أسلحتهم ومكافحة هجماتهم مكافحة فعالة، واعتقال المطلوبين وجمع الأسلحة غير الشرعية، أطلق الإسرائيليون سراح نحو ٤٠٠ سجين فلسطيني كبادرة حسن نية تجاه عباس، وكان من بين هؤلاء للمرة الأولى، سجناء "تلطخت أيديهم بالدم" ممن شاركوا في هجمات سقط فيها قتلى أو جرحى، لكن الفلسطينيين قللوا من شأن هذه البادرة واعتبروها عديمة المعنى لأن معظم هؤلاء السجناء شارفوا على إنهاء أحكامهم ولأن عددًا ضخمًا من السجناء ما يزال في سجون إسرائيل، وأشار الفلسطينيون إلى أن إسرائيل لم تطلق سراح أي سجين معتقل منذ ما قبل عام ١٩٩٤؛ وبالتالي فإن السجناء المطلق سراحهم لا يحققون الشروط المتفق عليها في شرم الشيخ.

استمرت الهجمات الفلسطينية وخاصة باستخدام الصواريخ وقذائف الهاون التي تستهدف مستوطنات غزة وبلدات منطقة النقب، سافر الرئيس عباس إلى غزة وحصل على التزام غير متحمس من قبل الفصائل المتطرفة باحترام التهدئة طالما احترمتها إسرائيل؛ لكن هذا لم يحل دون تواصل الهجمات الفلسطينية والانتقامات الإسرائيلية

واعتقال المطلوبين، ألقت إسرائيل القبض على استشهادي فلسطيني يبلغ ١٥ عامًا عند حاجز تفتيش في الضفة الغربية، ثم ألقت القبض في وقت لاحق على شابة كانت في طريقها إلى تنفيذ هجمة انتحارية ضد مستشفى إسرائيلي، وكانت كتائب شهداء الأقصى التابعة لفتح هي من أرسلها، تقول الإحصائيات الفلسطينية إن إسرائيل قتلت ٤٠ فلسطينيًا في تلك الفترة وجرحت ٤١١ واعتقلت نحو ١٠٠٠ مدني كان سبب اعتقال معظمهم هو تجاوز مدة تصريح الإقامة في إسرائيل، كان أكثر القتلى من الرجال المطلوبين أو ممن في سبيلهم إلى شن هجمات استشهادية، وفي أواخر حزيران وصلت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس فاجتمعت مع الجانبين، وأعلنت أنهما وافقا على تدمير المنازل في مستوطنات غزة بعد انسحاب إسرائيل.

وفي ٢١ حزيران ٢٠٠٥ اجتمع شارون وعباس في قمة طال انتظارها، لكن هذه القمة لم تسفر عن أي نتيجة ظاهرة إلا تصريح آرييل شارون بأنه حصل على موافقة الفلسطينيين على تنسيق عملية الانسحاب من غزة، لن تقدم إسرائيل أي تنازلات فيما يخص الأمن إلا إذا تحرك الفلسطينيون ضد من تسميهم الإرهابيين، ولن يتخذ الفلسطينيون أي إجراء حاسم ضدهم، لم يصدر أي إعلان عن القمة، وأعلنت القيادة الفلسطينية عن عدم رضا عميق، قال الفلسطينيون إن عددًا كبيرًا من المطلوبين أعلنوا استعدادهم للانضمام إلى الشرطة الفلسطينية في حين قال الإسرائيليون إنهم أقنعوا وكالة المساعدات

الأمريكية (US AID) بتقديم ٥٠٠ مليون دولار إلى المستشفيات الفلسطينية على شكل معدات طبية، أما من ناحيتها، فقد أنهت الولايات المتحدة الحظر الذي فُرض منذ ١٨ شهرًا على الزيارات الدبلوماسية إلى غزة عندما قتل موظفوا إغاثة في هجوم إرهابي، وعند ذلك استؤنفت زيارات الدبلوماسيين الأمريكيين إلى غزة.

ومع عودة العنف بعد القمة، شنت إسرائيل غارات جوية ضد منصات إطلاق الصواريخ في غزة، فقتلت كثيرًا من حركة الجهاد الإسلامي وأعلنت أنها سوف تستأنف سياسة استهداف قادة هذه الجماعة الإرهابية بالقتل.

وفي فلسطين تواصلت المظاهرات (بل حتى الهجمات المسلحة) ضد القيادة الفلسطينية، وواصلت شعبية حماس ارتفاعها (وهي الآن تعتزم خوض الانتخابات التشريعية)، ولعلها ازدادت بفعل اجتماعات - فعلية أو من صنع الشائعات - جرت بين مسؤولين في الاتحاد الأوروبي وبين ممثلين من حماس، وبفعل وجود دعوات متكررة في الولايات المتحدة من أجل الاعتراف بحماس، دعا رئيس الوزراء البريطاني والرئيس عباس حماس إلى وقف العنف والانضمام إلى العملية السلمية، لكن حماس رفضت في البداية مع قبولها بهدنة قصيرة المدى، أعلن الرئيس عباس عن تأجيل الانتخابات التشريعية عدة أشهر من أجل تعديل قانون الانتخابات، وفي أوائل شهر أيلول

وجه عباس الدعوة إلى حماس والجهاد الإسلامي للانضمام إلى حكومة وحدة وطنية.

يعزى الاستعصاء الذي شهدته هذه الفترة إلى عوامل كثيرة، لم يكن أي جانب يملك القوة السياسية الكافية لتقديم تنازلات فيما يخص قضايا الحل النهائي، لا معنى لتلك المفاوضات مع إصرار شارون على عدم إمكانية تقسيم القدس ومع إصرار عباس على أن تكون القدس عاصمة للفلسطينيين، وعلى عدم تقديم أي "تنازل" فيما يخص عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى إسرائيل، كان على عباس تحقيق الفوز لحركة فتح في الانتخابات التشريعية وما كان قادرًا على فعل أي شيء يمكن أن يستعدي المتعاطفين مع المتطرفين، ومن ناحيةٍ أخرى كان شارون قد بذل كل ما لديه من أجل عملية فك الارتباط في غزة فما عاد قادرًا على توفير أي دعم سياسي لتنازلات أخرى، فإن حدث عنف فلسطيني بعد تقديم أي تنازل، فقد يستخدم ذريعة إيقاف تنفيذ فك الارتباط، ومع تواصل الهجمات الفلسطينية على المستوطنات، وتواصل تحريض اليمين الإسرائيلي ضد خطة فك الارتباط، تراجع تأييد الإسرائيليين للانسحاب من أكثر من ٦٥% إلى نحو ٥٠%، لكن رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد دان حالوتس أشار إلى أن الأحداث العسكرية العارضة لن توقف فك الارتباط، يمكن وقف فك الارتباط من خلال قرار سياسي فقط، وقد هددت إسرائيل

أيضًا بأنها ستتخذ - عند الضرورة - إجراءات حاسمة لضمان عدم تعرض المستوطنين والجنود للهجمات خلال عملية الإخلاء.

الاحتجاجات على فك الارتباط، نفذ المستوطنون المحتجون على فك الارتباط احتجاجات متزايدة الشدة تضمنت قطع طرق في إسرائيل وأعمال عنف ضد الفلسطينيين والشرطة وجنود الجيش الإسرائيلي، وكذلك دعوات إلى الجنود تحثهم على رفض المشاركة في إخلاء المستوطنين، وفي نهاية حزيران حاول مؤيدوا المستوطنين (الذين اتخذوا مسكنًا لهم في فندق ماوز يام المهجور في غزة) الاستيلاء على منازل فلسطينية وهاجموا شابًا فلسطينيًا عمره ١٨ عامًا. داهمت الشرطة الإسرائيلية الفندق وأخرجت المستوطنين بالقوة، وفي ١٣ تموز، أغلقت الحكومة الإسرائيلية قطاع غزة أمام مواطنين إسرائيليين من غير سكان المستوطنات كانوا يعتزمون القيام بمسيرة نظمها مجلس المستوطنات.

انتهاء الهدنة في ١٣ تموز حيث قام استشهادي من حركة الجهاد الإسلامي من طولكرم بتفجير في نتانيا نتج عنه قتل خمسة أشخاص، احتل جيش الدفاع الإسرائيلي مدينة طولكرم واعتقل كثيرًا من أعضاء الجهاد الإسلامي وقتل شرطيًا فلسطينيًا فتح النار على الجيش الإسرائيلي، انتقمت حماس في غزة بأن أمطرت مستوطنات غزة والبلدات الإسرائيلية بسيل من الصواريخ، نجم عنه مقتل شخص

واحد، وردًّا على هذا شن جيش الدفاع هجمات صاروخية في غزة وطارد قادة عسكريين من حماس في منطقة الخليل، مما أدى إلى قتل ٨ أو أكثر من أعضاء حماس، وقد قتل بعضهم وهم يهمون بإطلاق صواريخ جديدة، وفي ١٥ تموز اندلعت معركة عنيفة بين قوات السلطة الفلسطينية التي كانت تحاول استعادة النظام وبين عناصر حركة حماس في غزة، قتل مدنيان فلسطينيان في هذه المعركة.

واصلت إسرائيل اعتقال قادة المقاومة الفلسطينيين واغتيالهم، كما واصلت احتلال مدن الضفة الغربية وشن الغارات على بعض الأهداف في غزة ردًا على ما يقوم به الفلسطينيون، كما واصلت هدم البيوت وتخريب كروم الزيتون ومضايقة الفلسطينيين عند حواجز التفتيش، قتل كثير من الأطفال الفلسطينيين في هذه الغارات، وقد وجهت انتقادات إلى الجيش الإسرائيلي في إسرائيل والخارج بسبب لامبالاته بأرواح المدنيين وباحتمال ارتكابه جرائم حرب.

العلاقات مع مصر:

بعد وفاة عرفات؛ تحسنت العلاقات الإسرائيلية المصرية، وخاطب الرئيس المصري حسني مبارك رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون بكلماتٍ دافئة، وفي أوائل كانون الأول أطلقت مصر سراح الإسرائيلي عزام عزام الذي مضت عليه ثمانية أعوام في السجن

بسبب اتهامه بالتجسس، وهو اتهام ينكره عزام، وفي الوقت عينه أطلقت إسرائيل سراح ستة طلاب مصريين اتهموا بالتآمر لقتل جنود إسرائيليين، وفي وقتٍ لاحق أطلقت إسرائيل سراح عدد من السجناء الفلسطينيين في "بادرة تجاه مصر" رغم ما قيل عن عدم وجود صلة بين الإجراءات المصرية والإسرائيلية، وفي أواسط كانون الأول وقّعت كل من مصر وإسرائيل والولايات المتحدة معاهدة المناطق الصناعية المؤهلة التي تمنح مصر مزايا تجارية في الولايات المتحدة الأمريكية لقاء المشاريع المشتركة بين مصر وإسرائيل، قام وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط ورئيس المخابرات المصرية عمر سليمان بزيارة القدس، ورغم تحسن العلاقات لم تعد مصر سفيرها إلى إسرائيل بعد أن استدعته في أعقاب انفجار أحداث العنف عام ٢٠٠٠.

وبعد تبين عجز الغارات الجوية الإسرائيلية في إيقاف صواريخ حزب الله أو في التوصل إلى قرار مُرضٍ من أجل وقف إطلاق النار، نفّذت إسرائيل غزوًا بريًا محدودًا في لبنان، ترافقت فيه التحركات المتقطعة غير الحاسمة مع تصريحات هجومية من جانب شخصيات إسرائيلية عامة، تواصلت الجهود من أجل التوصل إلى وقف إطلاق نار يكون مُرضيًا للطرفين، كانت مطالب إسرائيل الرئيسية تشمل تطبيق قراري مجلس الأمن ١٥٥٩ و١٦٨٠ (أي نزع سلاح حزب الله) ونشر الجيش اللبناني حتى الحدود وانتزاع السيطرة في جنوب

لبنان من يد حزب الله، إضافة إلى إعادة الجنديين المختطفين، وقد أرادت إسرائيل والولايات المتحدة أيضًا وجود قوة دولية قوية تشرف على نزع سلاح حزب الله، أما المطالب اللبنانية الرئيسية فتجسدت في خطة من سبع نقاط تضمنت نشر الجيش اللبناني في جنوب لبنان لكنها لم تتضمن نزع سلاح حزب الله، أصر اللبنانيون أيضًا على إعادة السجناء اللبنانيين الذين تحتجزهم إسرائيل وعلى انسحاب إسرائيلي فوري من الأراضي اللبنانية، وطلب لبنان أيضًا استعادة مزارع شبعا التي تحتلها إسرائيل، كانت الأمم المتحدة قد قررت في عام ٢٠٠٠ أن مزارع شبعا (الواقعة في مرتفعات الجولان) جزء من سوريا، أما سوريا فقد رفضت في ذلك الوقت ترسيم الحدود مع لبنان، لكنها قالت إنها تؤيد المطالب اللبنانية.

في ١١ آب، تصاعد الهجوم الإسرائيلي الذي لم تكن له خطة واضحة عندما بدا أن الجهود الرامية إلى تحقيق وقف إطلاق النار قد باتت في حالة استعصاء، وبدأت القوات الإسرائيلية تتقدم بالقوة باتجاه نهر الليطاني، الذي يبعد ٣٠ كم إلى الشمال من الحدود الإسرائيلية اللبنانية، لكن مجلس الأمن الدولي اجتمع في ذلك الوقت وأصدر القرار رقم ١٧٠١ الداعي إلى وقف الأعمال القتالية وإلى نشر الجيش اللبناني في جنوب لبنان، مع صياغة غامضة فيما يخص عدد من المسائل، أوقف الجانبان القتال يوم ١٤ آب ٢٠٠٦، وأثار سوء الأداء في هذه الحرب عاصفة من الانتقادات في إسرائيل؛

كما أثار الهجوم الإسرائيلي غضبًا واسعًا في العالم العربي، وكان الجيش الإسرائيلي الذي هاجم لبنان قد مُنِّي بهزيمة نكراء وسقطت عنه أسطورة الجيش الذي لا يقهر، فقد مرغ مقاتلوا حزب الله اللبناني رأس ذلك الجيش بالتراب بعد أن حقق نصرًا كبيرًا عليه، ودمر معظم قواته الغازية.

▪ الفصل التاسع عشر

الإدانات

أدانت منظمات حقوق الإنسان الدولية والأمم المتحدة إسرائيل بسبب جريمة الحرب المتمثلة في استخدام القنابل العنقودية في جنوب لبنان، لكن الاتفاقيات الدولية لا تحرم استخدام هذه القنابل، وقد استخدمت في نزاعات سابقة، وقد زعمت تلك المنظمات أيضًا أن إسرائيل تستهدف المدنيين عمدًا، لكن تقريرًا لمنظمةٍ إسرائيلية غير حكومية صدر في كانون الأول وجد أن مقاتلي حزب الله كانوا يختبئون بين السكان المدنيين وأن نحو ٧٠٠ من القتلى اللبنانيين في هذه الحرب هم من مقاتلي حزب الله، وفي وقتٍ لاحق، أدانت بعض مجموعات حقوق الإنسان (من بينها منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش) حزب الله أيضًا بسبب الإطلاق العشوائي للصواريخ، لكن مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة الذي أصدر ثمانية إدانات لإسرائيل خلال عام ٢٠٠٦ امتنع عن إدانة حزب الله أو حركة حماس.

ظل الجنديان الإسرائيليان أسرى لدى حزب الله، وفي كانون الأول تم الكشف عن أنهما جرحا أثناء أسرهما وأن حالتهما الصحية غير

مؤكدة، ظلت الحدود هادئة رغم تواصل عملية إعادة تسليح حزب الله من قبل سورية بخطى حثيثة.

وفي ٢١ تشرين الثاني جرى اغتيال السياسي اللبناني المُعادي لسوريا بيير الجميل، وفي الأول من كانون الأول بعد موافقة حكومة فؤاد السنيورة على طلب إنشاء محكمة دولية لمحاكمة قتلة رفيق الحريري، انسحب وزراء حزب الله من الحكومة اللبنانية وقامت حشود كبيرة منظمة من أنصار حزب الله بمحاصرة مقر رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومة اللبنانية، وقد قيل إن المتظاهرين كانوا يطالبون بتمثيل أنصار حزب الله في الحكومة بنسبة الثلث، أو بتعديل الدستور بحيث يوفر تمثيلاً عادلاً للشيعة، أو بحكومة وحدة وطنية.

العنف في غزة خلال الهجوم الإسرائيلي على لبنان وبعده، تواصلت عمليات جيش الدفاع الإسرائيلي من غير هوادةٍ في غزة، مع مواصلة الفلسطينيين إطلاق صواريخ القسام على غربي النقب، ومع إصرار حماس على أنها ملتزمة بالهدنة، ظلت حكومة حماس تتلقى المال من إيران والدول العربية، وقد كانت هذه الأموال تدخل غزة تحت أعين المراقبين الأوروبيين غير اليقظة في معبر رفح، هذا في حين تقدر كمية الأسلحة التي جرى تهريبها إلى غزة عبر أنفاق تم حفرها من الجانب المصري من الحدود بنحو ٣٠ طنًا، ولم تفعل الحكومة المصرية الشيء الكثير لوقف هذه النشاطات.

وخلال شهري تشرين الأول والثاني أطلق الفلسطينيون كمية كبيرة جدًا من صواريخ القسام على غربي النقب وعلى بلدة سديروت خاصة فقتلوا ثلاثة إسرائيليين، وقد كشفت عملية قام بها جيش الدفاع الإسرائيلي في رفح عن وجود شبكة واسعة من الأنفاق المستخدمة في التهريب، لكن عمليات الجيش الإسرائيلي في شمال غزة الهادفة إلى إيقاف إطلاق صواريخ القسام توقفت تحت ضغط دولي متزايد، مع قتل إسرائيل أكثر من ٥٠ فلسطينيًا، من بينهم كثير من المدنيين، كانت الغاية من العمليات في شمال غزة وقف إطلاق صواريخ القسام لكنها لم تحقق أي نتيجة، وفي إحدى الغارات لجأ مقاتلون فلسطينيون إلى مسجد، ثم بمساعدة نساء تطوعن بلعب دور الدروع البشرية، قتل جيش الدفاع الإسرائيلي عددًا من تلك النساء، وفي ٨ تشرين الثاني أي عقب الانسحاب الإسرائيلي، أثارت رشقة مكثفة من صواريخ القسام ردًا إسرائيليًا عن طريق القصف، لكن القذائف أخطأت هدفها فأصابت حيًا سكنيًا وقتلت عشرين مدنيًا فلسطينيًا، أما المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين من أجل إعادة الجندي المختطف جلعاد شاليط فقد ظلت من غير تقدم مع مطالبة الفلسطينيين بإطلاق سراح أكثر من ألف سجين فلسطيني.

الهدنة في ٢٦ تشرين الثاني، أعلن الفلسطينيون والإسرائيليون عن هدنة مفاجئة تسري في قطاع غزة فقط، ورغم استمرار صواريخ القسام التي يطلقها الفلسطينيون خلال الأيام التالية لإعلان الهدنة

إلا أن الهدنة لم تنهار، وفي اليوم الذي أعقب الهدنة أي ٢٧ تشرين الثاني، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت عن مبادرة دبلوماسية إسرائيلية جديدة تعرض السلام على الفلسطينيين والدول المجاورة، بما ينسجم مع مبادرة السلام العربية، كانت تلك هي المرة الأولى التي يشير فيها الإسرائيلي إلى المبادرة العربية إشارة غير إيجابية بطبيعة الحال، رحب الرئيس الفلسطيني محمود عباس بهذه الكلمة، طبيعي أن يرحب عباس وسلطته بهذا الإعلان من جانب إسرائيل، أما قادة حماس فقد رفضوها، ومن الولايات المتحدة صدر تقرير "مجموعة دراسة العراق" الذي أوصى بمساهمة أمريكية فعالة في عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، فأعطى دفعة للحديث عن المفاوضات السلمية.

تكرر خرق الهدنة في غزة بفعل رشقات من صواريخ القسام على البلدات الإسرائيلية، وأعلنت حركة الجهاد الإسلامي أنها غير ملتزمة بالهدنة ما لم تشمل الضفة الغربية أيضًا، إلا أن إسرائيل ادعت بأن حزب الله كان يدفع آلاف الدولارات مقابل إطلاق كل صاروخ من صواريخ القسام، ومن الطبيعي أن يكون هذا افتراء على حزب الله اللبناني، أما الحكومة السورية التي كانت تريد استرجاع الجولان وكسر العزلة المفروضة عليها بسبب دورها في العنف في كل من لبنان والعراق وفلسطين، فقد عرضت إجراء مفاوضات سلمية مع إسرائيل "من غير شروط مسبقة"، لكن وزير

الدفاع الإسرائيلي إيهود أولمرت رفض هذا العرض زاعمًا إن سوريا تواصل دعم المجموعات الإرهابية.

قمة عباس أولمرت في ٢٣ كانون الأول، اجتمع أخيرًا رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت والرئيس الفلسطيني محمود عباس وأعلنا عن بعض التنازلات من أجل جعل الحياة أكثر سهولة على الفلسطينيين، بما في ذلك الإفراج عن أموال الضرائب التي جمدتها إسرائيل وإزالة عدد من حواجز التفتيش على الطرقات، لكن خطة الإفراج عن السجناء بمناسبة عيد الأضحى ألغيت، وافقت إسرائيل بعد القمة على نقل كمية كبيرة من الأسلحة من مصر إلى جماعة فتح الموالية للرئيس عباس، وألمحت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني في مؤتمر صحفي إلى مبادرة سلام جديدة، اعتبرت هذه الخطوات محاولات لمساندة الرئيس عباس في صراعه مع حكومة حماس بقيادة إسماعيل هنية، والأصح لزيادة التوتر بين السلطة وحركة حماس في غزة، ولكن حماس لم تستجب لمثل هذه التحريض المكشوف.

حكومة الوحدة الوطنية الفلسطينية ومرحلة الفوضى، بعد صدور وثيقة الأسرى الفلسطينيين تواصلت المفاوضات من أجل تشكيل حكومة وحدة وطنية، كانت إسرائيل وسلطة عباس تأملان أن تتمكن من الاعتراف بوجود إسرائيل، ووقف العنف، ونيل اعتراف الغرب بما يسمح للحكومات الغربية باستئناف تمويل السلطة الفلسطينية.

حدد الرئيس عباس مهلة أسبوعين لتشكيل الحكومة، ثم جرى تأجيل الموعد ثم تم نسيانه؛ ثم انتهت المفاوضات بالفشل. وفي ١٦ كانون الأول أعلن محمود عباس حل الحكومة والدعوة إلى انتخابات جديدة إلا إذا وافقت حماس على قيام حكومة وحدة وطنية. لكنه لم يحدد موعدًا لإجراء تلك الانتخابات، أدى هذا الطرح إلى تجدد العنف بين الفصائل الفلسطينية إذ راحت حماس تتهم فتح بمحاولة اغتيال رئيس الوزراء إسماعيل هنية، فشلت محاولة لإقامة هدنة بين الجانبين، وتم إغلاق المدارس في غزة بسبب تزايد الفوضى، لكن الجانبين توصلا تحت رعاية سعودية في ٨ شباط ٢٠٠٧ إلى اتفاق على تشكيل حكومة وحدة وطنية، لم ينص الاتفاق صراحة على إعلان الاعتراف بإسرائيل أو على تلبية مطالب اللجنة الرباعية في نزع سلاح المقاومة كما كان يطلب عباس، ثم عقدت قمة ثلاثية بين محمود عباس وإيهود أولمرت، ووزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس في ١٩ شباط، لكنها فشلت في زحزحة عباس عن موقفه أو في الحصول على تنازلات لصالح الفلسطينيين.

أعمال الإنشاء في جبل الهيكل/ الأقصى تطلق شرارة الشغب بدأت إسرائيل إعادة بناء نفق قرب المسجد الأقصى في القدس وفق مسار جديد، كان النفق قد انهار في عام ٢٠٠٤، وكان المسار الجديد يمر على بُعد ٨٠ مترًا من الأقصى، ورغم موافقة الوقف الإسلامي على المشروع في البداية عاد الشيخ رائد صلاح زعيم الحركة الإسلامية

في إسرائيل، فزعم أن هذه الأعمال الإنشائية تلحق الضرر بالمسجد وهدد ببدء انتفاضة جديدة، أنكرت إسرائيل أن هذه الأعمال ضارة بالمسجد، وبعد احتجاجات جرت في العالمين العربي والإسلامي علقت إسرائيل العمل في ذلك النفق لكنها واصلت عمليات التنقيب الأثري.

نصبت إسرائيل كاميرات متصلة بالإنترنت من أجل إظهار ما تقوم به من عمليات ودعت الحكومة التركية إلى تفتيش الموقع، أعلنت تركيا وفريق من اليونسكو أن الأعمال التي قامت بها إسرائيل لم تسبب أي أذى، لكن فريق اليونسكو طلب من إسرائيل وقف الأعمال حتى يمكن وضعها تحت إشراف دولي، وفي تموز أعلنت السلطات الإسرائيلية إلغاء المشروع.

تفكك السلطة الفلسطينية تواصلت حوادث معزولة نتج عنها إصابات بين المدنيين، إضافةً إلى اشتباكات بين مناصري كل من حماس وفتح، ثم تفاقم الوضع في غزة في عام ٢٠٠٦ وفي الجزء الأول من عام ٢٠٠٧، وترافق ذلك كله مع إطلاق يومي لصواريخ القسام على بلدة سديروت، وتضمنت حالة الفوضى قتل عدد من الفلسطينيين واختطاف فلسطينيين وأجانب، جرى اختطاف مراسل هيئة الإذاعة البريطانية آلان جونستون على يد جماعة طرحت مطالب متنوعة، وزعمت الحكومة الفلسطينية أنها غير قادرة على تحريره، لكن

حماس حررته فعلاً في ٤ تموز في عملية وصفها الناطق باسم فتح "ياسر عبد ربه" بأنها "مسرحية مرتبة".

وفي حزيران ٢٠٠٧ اندلع قتال شديد بعد ما قيل من قيام ناشطين من فتح بإطلاق قنبلة ذات دفع صاروخي إلى داخل منزل رئيس الوزراء الفلسطيني إسماعيل هنية، وهو أيضًا زعيم حركة حماس في غزة، انتقمت قوات حماس بمهاجمة ناشطي فتح الذين يفوقونها عددًا، وبمهاجمة الشرطة الفلسطينية التابعة لفتح، وبقية القوات الحكومية في غزة، ورغم أن قوات حماس تقدر بأقل من ٣٠٠٠ مقاتل، في حين يفترض أن قوات فتح تقارب ٤٠٠٠٠ عنصرًا، تمكنت حماس من طرد فتح من جميع معاقلها، أظهر مقاتلوا حماس تشددًا يتوائم مع أفعال الفتحاويين، حيث اجتاحت حماس المستشفيات وقامت بقتل عناصر من فتح، وفي ذلك القتال استولت حماس على كميات كبيرة من الأسلحة التي قدمتها حكومة مصر إلى قوات فتح، لم يكن محمد دحلان وغيره من كبار قادة فتح في قطاع غزة عندما بدأ ذلك القتال، وقد اشتكى مقاتلوا فتح من أن أحدًا لم يعطهم أمرًا بالرد على النيران، تردد الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي يقع مقره في الضفة الغربية، لكنه لم يلبث أن أعطى أمرًا بشن هجوم مضاد بعد أن وجه باحتمال تمرد عناصر فتح في الضفة الغربية، لكن انهيار حركة فتح في غزة تواصل من غير توقف، وفي ١٤ حزيران أقال محمود عباس حكومة الوحدة

الوطنية الموجودة في غزة وأعلن عن اعتزامه تشكيل حكومة جديدة من التكنوقراطيين المستقلين، فر مقاتلوا فتح إلى مصر وإسرائيل عن طريق البر والبحر وعن طريق إسرائيل، أما مقاتلوا فتح المطلوبين من قبل السلطات الإسرائيلية فقد فضلوا تسليم أنفسهم لها على مواجهة حماس، تلقت الصحف الإسرائيلية طوفانًا من الفاكسات الواردة من غزة راجية إسرائيل أن تعيد احتلال قطاع غزة من أجل إسقاط حركة حماس، وفي الضفة الغربية راحت ميليشيات فتح وقوات الشرطة تعتقل مسؤولي حماس وناشطيها، عبَّر الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة عن موقف مساند لمحمود عباس، كما عبَّر وزراء الخارجية العرب عن دعمهم له لكنهم طالبوا في الوقت عينه بإعادة إنشاء حكومة الوحدة الوطنية، وصرح زعيم حركة حماس المقيم في دمشق خالد مشعل أن حماس لا تعتزم مواجهة الرئاسة الفلسطينية لكن ما قامت به كان ضروريًا من أجل استعادة النظام والتخلص من العناصر المسيئة، وأصرت حماس على أن زعماء من فتح مثل محمد دحلان خاصة، ليسوا إلا خونة متآمرين مع الأمريكيين والإسرائيليين، واعتبر أحد المتحدثين باسم حماس أن ما جرى من عنف كان تطبيقًا "للعدالة الإسلامية"، وأطلقت إسرائيل والسلطة الفلسطينية الأكاذيب والادعاءات التي لا أساس لها من الصحة أن هذا العنف ما كان ليبدأ من غير موافقة من خالد مشعل؛ ومن المرجح أيضًا أنه أعطى الأوامر بذلك حيث أن مشعل

واقع تحت سيطرة السوريين الذين يؤونه، وتحت سيطرة الإيرانيين الذين يقدمون تمويلاً كبيرًا لحماس والذين هم من حلفاء سوريا.

شهدت شعبية حماس في غزة وضعًا مشددًا مع تدهور شروط المعيشة بسبب الحصار الإسرائيلي والدولي، ولأن المقاومين راحوا يحاربون مظاهر الثقافة الغربية في غزة، وفي تشرين الثاني تعرضت تظاهرة نظمتها فتح في ذكرى وفاة ياسر عرفات إلى قمع عنيف من قبل قوات الأمن التابعة لحماس التي قتلت سبعة أشخاص وجرحت خمسة وخمسين، ألقت حماس باللائمة في هذا العنف على حركة فتح. واصلت حماس استيراد كميات كبيرة من المتفجرات والأسلحة التي كانت تقوم بتهريبها إلى غزة عبر الأنفاق، اكتشفت قوات الأمن المصرية ٦٠ نفقًا في يومٍ واحد بعد احتجاج إسرائيل على تراخي مصر في مراقبة الحدود، وكانت حماس وبقية الميليشيات تطلق على منطقة النقب الغربي ما معدله صاروخ قسام واحد كل ثلاث ساعات في حين كانت إسرائيل تنفذ غارات انتقامية وقصفًا صاروخيًا يستهدف طواقم إطلاق الصواريخ في غزة، إضافة إلى إغارات ليلية في الضفة الغربية من أجل إلقاء القبض على حمساويين مطلوبين.

مؤتمر أنابوليس انطلاقًا من قرار القمة العربية تجديد مبادرة السلام العربية ومن الوضع الذي خلقته حماس من خلال استيلائها على السلطة في غزة، واستجابة لدعوة تقرير "مجموعة دراسة العراق"

إلى المضي في مفاوضات السلام الإسرائيلية الفلسطينية، نظمت الولايات المتحدة قمة في مدينة أنابوليس في الفترة ٢٦ ــ ٢٨ تشرين الثاني، توقعت تنبؤات كثيرة بفشل هذه القمة، لكن الدول العربية بما فيها سوريا، حضرتها إضافة إلى الأمم المتحدة وممثلين عن مجلس التعاون الخليجي والاتحاد الأوروبي وروسيا وجنوب أفريقيا، ودول أخرى.

أطلقت إسرائيل سراح أكثر من ٤٠٠ سجين فلسطيني، وزودت السلطات الفلسطينية بمواد الإغاثة، وسمحت إسرائيل أيضًا بنشر شرطة السلطة الفلسطينية في نابلس للحد من الجريمة التي تفشت فيها، اجتمع إيهود أولمرت ومحمود عباس عدة مرات من غير التوصل إلى اتفاق على إعلان مشترك من أجل تلاوته في قمة أنابوليس، تم التوصل إلى الإعلان المشترك في اللحظة الأخيرة بعد ضغوط شديدة مارسها الأمريكيون، وفر هذا المؤتمر الاعتراف بمحمود عباس زعيمًا للفلسطينيين، واتفقت إسرائيل مع الفلسطينيين على تجديد مفاوضات الوضع النهائي مع الإعراب عن الأمل في التوصل إلى اتفاق قبل نهاية عام ٢٠٠٨، وتعهد الطرفان بتطبيق خريطة الطريق بشكل متوازٍ مع قيام الولايات المتحدة بمراقبة التقدم في هذا الصدد، ولم يجر ذكر المشكلة التي تمثلها سيطرة حماس على قطاع غزة.

قام الرئيس الأمريكي جورج بوش بجولة في الشرق الأوسط في كانون الثاني ٢٠٠٨، لكن من الواضح أن جولته هذه فشلت في حشد الدعم لأهداف سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، التي كان من بينها مساندة سلام إسرائيلي فلسطيني، يقوم على مفاوضات بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية التي تهيمن عليها فتح، واصلت مصر والسعودية العمل من أجل رأب الصدع بين فتح وحماس؛ وهذا ما من شأنه إنهاء المفاوضات السلمية، لكن الإسرائيليين والفلسطينيين تعهدوا بإجراء مفاوضات جدية بشأن "القضايا الجوهرية" من قبيل قضيتي القدس واللاجئين، وصدرت عن الحكومة الإسرائيلية إعلانات متضاربة فيما يخص تجميد بناء المستوطنات في الضفة الغربية، وفي أجزاء القدس التي ضمتها إسرائيل بعد حرب الأيام الستة.

ظل النظام الذي تقوده حماس في غزة العائق الأكثر وضوحًا في وجه السلام، وواصل إرهابيوا الجهاد الإسلامي ولجان المقاومة الشعبية إطلاق صواريخ القسام وقذائف الهاون على بلدة سديروت وغيرها من الأهداف في النقب الغربي؛ كما أطلقوا صاروخ غراد واحد على الأقل على مدينة أشدود، واستمرت إسرائيل في قصف طواقم إطلاق الصواريخ وزعماء مختلف المجموعات المسؤولة عن إطلاق الصواريخ من غزة فقتل بعض المدنيين، وبعد ذلك انضمت حماس إلى عمليات إطلاق الصواريخ مع تصاعد توتر الأوضاع،

قتل قناصون فلسطينيون معلمًا متطوعًا اسمه كارلوس شافيز في كيبوتز عين هاشلوشا، وعمدت إسرائيل إلى تقييد السفر من غزة ودخول البضائع إليها وقررت قطع إمدادات الوقود عنها، أدت هذه الخطوات إلى التأكيد بأن إسرائيل تمارس سياسة العقاب الجماعي، وفي ٢٠ كانون الثاني قامت حماس بإيقاف محطة الكهرباء في غزة عن العمل في أعقاب قطع إمدادات الوقود، في محاولة لجعل العالم يدين إسرائيل لأن هذه المحطة تنتج نحو ٢٠% من الكهرباء في غزة، لكن من غير الواضح ما إذا كان الوقود في محطة الكهرباء قد نفذ فعلاً، وبعد ثلاثة أيام قامت حماس بتفجير فتحات في الجدار الفاصل بين غزة ورفح بعد أشهر من التحضير جرى خلالها تخريب حديد التسليح فيه، وهذا ما سمح للآلاف من أهالي غزة بدخول مصر بحرية، ومن الواضح أن عددًا من عناصر حماس المسلحين أفلحوا في التسلل إلى سيناء مع جموع الناس التي تدفقت لشراء السلع من رفح، وبعد شيء من التردد قامت مصر بإغلاق الثغرات إغلاقا جزئيًا في ٢٨ كانون الثاني، وفي الأيام اللاحقة تبين أن الحدود لم تعد مغلقة وأن ناشطي حماس أعادوا فتح بعض أجزاء الجدار التي أغلقها المصريون، اعتقلت قوات الأمن المصرية أكثر من عشرة فلسطينيين تسللوا إلى سيناء.

اقترحت السلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس تولي الإشراف على المعابر الحدودية التي هجرها المراقبون الأوروبيون عندما

تولت حماس السلطة، وأصرت حماس على حقها في وضع دورياتها على المعابر الحدودية، مُعلنة عن عدم قبولها العودة إلى الوضع السابق الذي كان يسمح للإسرائيليين والأوروبيين بمنع دخول الأسلحة والأموال والمقاتلين، صحيح أن حماس عارضت عودة المراقبين الأوروبيين في البداية لكنها عادت فخففت موقفها بعد عدة أيام. أعاد المصريون إغلاق الحدود وتواصلت المفاوضات الرامية إلى التوصل إلى حل يسمح بفتح معبر رفح؛ لكن من غير نتيجة.

- قتل عماد مغنية :

في ١٣ شباط، قتل في دمشق العقل المدبر لإرهاب حزب الله عماد مغنية في تفجير سيارة مفخخة بجانب سيارته، كانت إسرائيل ودول أخرى تعتبر منذ زمن بعيد أن مغنية مسؤول عن تخطيط وتنفيذ عمليات حزب الله بدءًا بالهجمات التي استهدفت مقر قوات المارينز والسفارة الأمريكية في بيروت أوائل الثمانينات، وكذلك الهجوم على المركز اليهودي والسفارة الإسرائيلية في بوينس آيرس وحوادث اختطاف الجنود الإسرائيليين المتكررة ومن بينها عملية الاختطاف التي أشعلت شرارة حرب ٢٠٠٦ في لبنان.

- قائد المقاومة اللبنانية الشهيد عماد مغنية -

اعتقلت سوريا كثيرًا من الفلسطينيين، واتهم حزب الله إسرائيل بتدبير عملية الاغتيال، أما إيران التي كانت تنكر منذ زمن طويل أي علاقة لها بعمليات مغنية فقد أعلنت الحداد عليه علنًا واتهمت إسرائيل باغتياله، وتوقعت إسرائيل حدوث عمليات انتقامية.

الغارة الإسرائيلية على غزة في ٢٧ شباط ٢٠٠٨ قتلت غارة صاروخية إسرائيلية خمسة من حماس زعمت فيما بعد أنهم كانوا يخططون لتنفيذ عملية كبيرة ضد إسرائيل، وفي اليوم التالي ردت حماس بإطلاق ٣٠ صاروخًا وصل بعضها حتى عسقلان، وقتل أحدها طالبًا في كلية سابير في النقب الغربي، كان من بين هذه

الصواريخ عدد من صواريخ غراد إيرانية الصنع، وهي نسخة من صواريخ الكاتيوشا، بدأت إسرائيل في ٢٩ شباط حملة واسعة النطاق استمرت عدة أيام وقتلت أكثر من ١٠٠ فلسطيني، زعمت إسرائيل أن عشرة مدنيين فقط قتلوا في غزة؛ أما حماس فقالت إن أكثر قتلى الغارة كانوا مدنيين، وقبيل زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس إلى المنطقة، دعت الولايات المتحدة إلى وقف العنف، انتهى الهجوم الإسرائيلي يوم ٣ آذار رغم أن جيش الدفاع الإسرائيلي كان يعتزم المضي فيه، علق الرئيس الفلسطيني محمود عباس المفاوضات المباشرة مع إسرائيل، لكنها استؤنفت في ٥ آذار، أعلنت حماس أنها انتصرت، ورغم تواتر الإشاعات عن "هدنة" وعن مفاوضات من أجل الهدنة في شهر آذار، واصلت الصواريخ الفلسطينية استهداف النقب الغربي وواصلت إسرائيل قتل الفلسطينيين، أما إغارات إسرائيل في الضفة الغربية فكادت تتوقف تمامًا رغم وقوع هجوم استهدف ييشيفات مركز هاراف في القدس يوم ٦ آذار، أقدم فيه مسلح فلسطيني من حي جبل المكبر في القدس على قتل ثمانية من طلبة المدرسة الدينية، ادعت حماس مسؤوليتها عن هذا الهجوم لكنها عادت فأنكرتها في وقتٍ لاحق.

وبعد دعوات ملحة من جانب وزيرة الخارجية الأمريكية تم استئناف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، قال عباس إن الجانبين يناقشان القضايا الجوهرية، من قبيل مستقبل مدينة القدس مثلاً؛ لكن أي

تفاصيل عن هذه المفاوضات لم تنشر، أعلنت إسرائيل عن عقود لبناء منازل للمستوطنين في حي هارشوما في القدس الشرقية، وفي عدة مناطق أخرى في الضفة الغربية مما أغضب الفلسطينيين، تلا هذا الإعلان عدد من الإعلانات المتضاربة التي صدرت عن مسؤولين إسرائيليين بشأن سياسات توسيع الاستيطان، وفي شهر نيسان، أزالت إسرائيل عددًا من حواجز الطرق في الضفة الغربية وسمحت للقوات الفلسطينية بدخول مدينة جنين.

الهدنة أفضت مفاوضات مكثفة غير مباشرة برعاية مصرية إلى هدنة بين إسرائيل وحماس بدأ تنفيذها في ١٩ حزيران، سرت هذه الهدنة على قطاع غزة فقط دون أن تشمل الضفة الغربية، وبموجب الهدنة تمتنع إسرائيل عن تنفيذ هجمات داخل غزة في حين تمتنع حماس والفصائل الأخرى عن إطلاق الصواريخ وشن الهجمات الإرهابية ضد إسرائيل، زعمت إسرائيل أن الهدنة تشمل تهريب الأسلحة، لكن حماس أنكرت ذلك، ورغم وقوع عدد من حوادث إطلاق الصواريخ وقذائف الهاون من جانب الفلسطينيين فقد بدت الهدنة صامدة، في البداية على الأقل. اعتقلت حماس ناطقًا باسم كتائب شهداء الأقصى بعد أن زعمت تلك الجماعة مسؤوليتها عن إحدى الهجمات، وعمدت إسرائيل دون ضجة إلى تخفيف إغاراتها واعتقالاتها في الضفة الغربية بعد أن صارت هذه الهجمات الإسرائيلية تثير هجمات انتقامية في غزة، وتواصلت بعد سريان الهدنة

المفاوضات الرامية إلى الإفراج عن الجندي الإسرائيلي المختطف جلعاد شاليط، ظلت الهدنة صامدة رغم حوادث عرضية لإطلاق صواريخ القسام وقذائف الهاون، لكن أمل إسرائيل في الإفراج عن جلعاد شاليط لم يتحقق.

وفي ٢٩ حزيران وافقت الحكومة الإسرائيلية على صفقة تُفرج بموجبها عن اللبناني المحكوم سمير قنطار، وعدد من السجناء اللبنانيين والفلسطينيين مقابل جثتي إلداد ريغيف وإيهود غولدفاسر اللذين كان اختطافهما الشرارة التي نتجت عنها حرب لبنان الثانية، وفي إسرائيل أعلن رئيس حزب العمل إيهود باراك أن حزبه سينسحب من الحكومة الائتلافية إذا لم يغير حزب كاديما رئيسه إيهود أولمرت، وذلك بعد مزاعم متكررة بالفساد، وفي ١٧ أيلول ٢٠٠٨ فازت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني بزعامة حزب كاديما وعندما أعلنت ليفني في ٢٦ تشرين الأول أنها غير قادرة على تشكيل حكومة ائتلافية تقرر إجراء انتخابات جديدة في ١٠ شباط ٢٠٠٩.

وفي مساء ٤ تشرين الثاني نفَّذ جيش الدفاع الإسرائيلي توغلاً كبيرًا في غزة من أجل تدمير نفق قيل إن الفلسطينيين يحفرونه من غزة إلى إسرائيل، قُتل في هذا التوغل ستة مسلحين من حماس، وفي الأيام التالية ردت حماس والفصائل الأخرى بإطلاق نحو ٣٥

صاروخ غراد (من عيار أكبر) على سديروت وعسقلان فرد جيش الدفاع الإسرائيلي بتوغل استهدف خان يونس.

وفي ٩ تشرين الثاني عُقد اجتماع للجنة الرباعية في شرم الشيخ من أجل تأكيد دعم المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية ضمن إطار عملية أنابوليس وخطة الطريق، عبَّر الجانبان عن مساندتهما هذه العملية، ألغت حماس مشاركتها في اجتماع من أجل المصالحة الفلسطينية كان مقررًا عقده في القاهرة خلال الأسبوع نفسه.

واصلت حماس والفصائل التابعة لها إطلاق الصواريخ على إسرائيل وأعلنت أنها تعتزم عدم تجديد اتفاق التهدئة في ١٩ كانون الأول، كانت مفاوضات التهدئة قد جرت في ١٩ حزيران ٢٠٠٨، وفي النهاية أعلنت حماس أنها تقبل استمرار التهدئة ستة أشهر فقط، زعمت الأخبار أن قيادة حماس لغزة تريد تجديد التهدئة لكن زعيم حماس في المنفى خالد مشعل رفض قبول ذلك، لجأت إسرائيل إلى المصريين وإلى الأمم المتحدة طالبة وضع حد لإطلاق الصواريخ، وفي ٢٤ كانون الأول قصفت حماس إسرائيل بنحو ٦٠ صاروخًا وقذيفة هاون، بدأت إسرائيل عملية "أوفريت بيتزوكا" يوم ٢٦ كانون الأول، وخلال ساعات من صباح يوم السبت وحده نفَّذ جيش الدفاع الإسرائيلي نحو ١٠٠ إغارة دمر فيها مخازن أسلحة ومصانع أسلحة وأنفاق تهريب ومنصات إطلاق صواريخ، إضافة إلى مراكز قيادة

حماس في غزة، قتل نحو ٢٢٥ فلسطينيًا ثم ازداد الرقم فبلغ ٣٠٠ قتيلاً خلال بضعة أيام، تزعم تقديرات الأمم المتحدة أن من بين القتلى زهاء ٥١ مدنيًا، أما مصادر حماس فتقول إن ١٥٥ شخصًا ممن قتلوا في الهجوم الأصلي كانوا مدنيين، وقع كثير من الإصابات في صفوف متدربي "شرطة" حماس أثناء حفل لتخريجهم، زعمت إسرائيل أن حماس تعمدت استخدام الدروع البشرية؛ وأشارت برامج تلفزيون حماس إلى فخر حماس باستخدام المدنيين دروعًا، ردت حماس على الغارات الجوية المتواصلة بإطلاق صواريخ غراد التي وصلت هذه المرة حتى بئر السبع ويافني (٤٥ كم)، قتلت هجمات حماس ٣ إسرائيليين حتى نهاية العام، أما حصيلة القتلى بين الفلسطينيين فناهزت ٤٠٠ قتيل. رفضت حماس الكف عن إطلاق الصواريخ وراحت إسرائيل تستعد لشن عملية برية في غزة، ثم أصدر مجلس الأمن الدولي بيانًا في ٢٨ كانون الأول، دعا فيه الجانبين إلى وقف العنف، لكن اعتراض الولايات المتحدة حال دون إصدار مجلس الأمن قرارًا ملزمًا بوقف إطلاق النار.

انتهت أعمال القتال الرئيسية يوم ١٨ كانون الثاني عندما أعلنت إسرائيل وقف إطلاق النار من جانب واحد، ثم حذت حماس حذوها فأعلنت وقف إطلاق النار من جانبها، قتل زهاء ١٣٠٠ فلسطيني؛ وقتل ١٣ مواطن إسرائيلي، زعمت إسرائيل أن أكثر المصابين الفلسطينيين كانوا مقاتلين، في حين زعم الفلسطينيون أن أكثرهم

مدنيون، وتحدثت جماعات حقوق الإنسان عن أعداد كبيرة من القتلى الأطفال، لكن إسرائيل زعمت أن كثيرًا من "الأطفال" الذين تحدثت عنهم هذه التقارير؛ هم في الواقع مقاتلون راشدون من حركة حماس، لكن إسرائيل لم تنشر أي قائمة علنية بالإصابات، لم تكن نتائج هذه العملية حاسمة، ولم تحقق إسرائيل نصرًا عسكريًا، لكن مشكلات حكم حماس في غزة والجندي المختطف جلعاد شاليط واستمرار تدفق الأسلحة المهربة إلى غزة عبر الأنفاق ظلت كلها من غير حل، مبدئيًا على الأقل. استمر إطلاق الصواريخ واستمرت الردود الانتقامية حتى ما بعد الانتخابات الإسرائيلية في ١٠ شباط ٢٠٠٩.

أعطى الناخبون الإسرائيليون الأغلبية البرلمانية لأحزاب اليمين، وشكَّل بنيامين نتنياهو حكومة ضمَّت حزب الليكود الذي يتزعمه، وحزب العمل الإسرائيلي وحزب إسرائيل بيتنا اليميني، إضافة إلى أحزاب دينية، رفض حزب كاديما الانضمام إلى الحكومة، والظاهر أن رفضه جاء بسبب عدم قبول الليكود العودة إلى حل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني عن طريق إقامة دولتين، وفي ٤ حزيران ٢٠٠٩ ألقى الرئيس الأمريكي باراك أوباما كلمة تاريخية موجهة إلى المسلمين والعالم العربي دعا فيها الفلسطينيين إلى نبذ العنف ودعا العرب إلى الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، مكررًا دعم الولايات المتحدة حل الدولتين وداعيًا إلى إنهاء بناء المستوطنات

(خطاب الرئيس أوباما في القاهرة يوم ٤ حزيران ٢٠٠٩). استجاب رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو لكلمة أوباما يوم ١٤ حزيران فأعلن تأييد إسرائيل الحل القائم على الدولتين، وتعهد بألا تقوم إسرائيل بإنشاء مستوطنات جديدة أو بمصادرة أراضٍ جديدة لصالح المستوطنين؛ لكنه أعلن أيضًا استمرار بناء وحدات سكنية في المستوطنات من أجل ما أطلق عليه اسم "النمو الطبيعي".